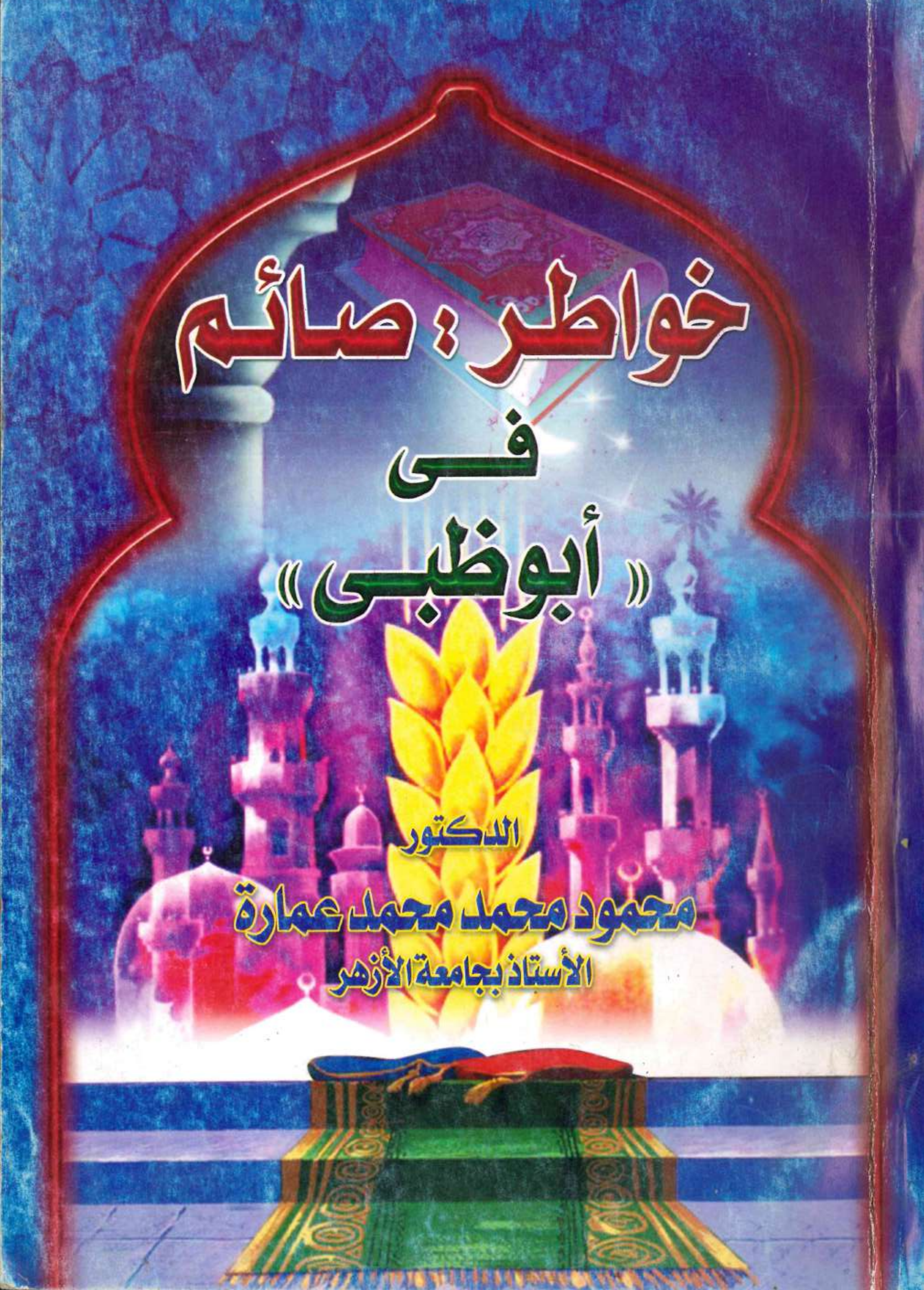

خواطر صائم
في
« أبوظبي »
الدكتور
محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر

تـــــمـهـيــد

للعـام الثـانى على التـوالى . . ننزل ضـيـوفـا على صـاحب السـمـو الشـيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة أدام الـلـه عليه نعمتى الصحة والتوفيق

ولقد كانت **مهمتنا من قبل** هى :

إلقاء درس بعد صلاة التراويح بالإضافة إلى المحاضرات الصباحية فى الجامعات والمؤسسات .

لكن «الجرعة» زادت هذا العام ليضـاف إلى درس المسـاء . . درس بعد صلاة العصر . . والذى بدت به المهمة أكثر «خصوبة» ولا أقول «صعوبة» !

ولقد كـانت **عناية المسئولين بنا** على غاية ما تكون العناية .. الأمر الذى كان له الأثر البالغ فى اهتمامنا بهذه الفرصة السانحة فى بلاد يسعدك أن ترى فيها نظافة المكان . . وطهارة الإنسان . . وعبقرية السلطان .

وقد كنت أذهب إلى المسجد مشحونا بأفكار ومعان حول موضوع ما .. ولكن الوقت كان يضيق . . فلا يتسع لطرح كل هذه الأفكار . . لا سيما وقد كانت هناك أسئلة تعبر عن خصوبة الشخصية الإسلامية ورغبتها فى تجاوز الحكم .. إلى الحكمة التى هى ضالة المسلم .

ولقد كان من بركة هذه البلاد الطيبة . أنني كنت أنتهز فرصة عزلتي في غرفتي «بالفندق» .. لأستغلها في كتابة ما كنت أقوله فعلا .. وما كنت عازما على قوله ! .. كنت أفتح الطريق .. أمام هذه المعاني لتنساب في تلقائية .. وإلى حيث يستقر بها النوى ! .. ثم وفي النهاية كانت هذه الخواطر .. الذي بين يديك في كتاب ..

وللقارىء العزيز أن يتصور هذه الخواطر مضمومة إلى أخواتها من أفكار جلة العلماء من زملائي .. لتدرك على الفور من بركات هذه الضيافة ما هو أغلى من ملء الأرض ذهبا . وقد تتصور برنامجا ثقافيا في قناة فضائية . . أو مسرحية . . أو تمثيلية . قد تقدر نفقاتها بالملايين .. ولكن يبقى لهذه اللقاءات قيمتها التي هي أثقل في الميزان . وأجمل بهذا الوقت اليومي المبارك والذي كنا نلتقي فيه قبل العشاء ، ولحظة الانطلاق في الآفاق .. وكيف تتحقق الوحدة العربية والإسلامية حين تسعد بأخيك من المغرب .. ومن المشرق .. ومن الشمال والجنوب .. من كل قارات الدنيا الخمس !

ليلـــة مبـــاركـــة

وإذا كانت ليلة القدر هي الليلة المباركة بإطلاق .. فقد كان من نفحاتها تلك الليلة التي فوجئت فيها .. وبعد صلاة التراويح . بأن المستمعين جميعا ليسوا عربا . . وإنما هم :

هنود .. وباكستان . . وأفغان . . ومع أنني بدأت أتكلم بالعربية التي لا

يفـهـمـونها .. إلا أنني وجدتهم منصتين خاشـعين وكأنما على رءوسـهم الطير !!

وكان المأزق حرجا !!

ولكن أنطقني الله الذى أنطق كل شىء :

فقد قلت لهم :

إني داع فـأمنوا . . وبسطت يدى ثم دعـوت وهم يقـولون آمين .. وهى الكلمة التي يعرفونها !!

ولمحت الدموع الغزار تنساب من بين لحاهم فى ضراعة تحسها . . ولكن لا تستطيع وصفها ؟!

وأزعم أنها كانت أكثر الليالى بركة فى حياتى . . بينما لم أتكلم فيها ؟!

وربما كان من بركاتها تلك الصفحات التى بين يديك . . والتى أرجو أن تكون في ميزان حسناتي .. مجددا الدعاد لمن كان وراء هذا الخير العميم **صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان** حفظه الله تعالى .

د . محمود محمد محمد عمارة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]

تمهيـــــد :

بحلول شهر رمضان . . نكون مدعوين إلى سباق يشمر المسلم فيه عن ذراع .. ويكشف عن ساق . . مسارعا إلى غاية الغايات وهى التقوى التى نرجو بها أمرين :

أ – المغفرة .
ب – وجنة عرضها السموات والأرض .

وذلك قوله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]

إننا مكلفون . . وبالذات فى شهر رمضان . . أن نسارع فى الخيرات . . ذاكرين أن هناك على الطريق اللاحب ناساً مثلنا ينشدون نفس الغاية . . وعلينا أن نسابقهم لنسبقهم إليها . وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . . ﴾[3]

---

١ – البقرة : ١٨٣ ٢ – آل عمران : ١٣٣ ٣ – الحديد : ٢١

إنها المغفرة إذن . .

ثم جنة عرضها السموات والأرض .. فهما **نعمتان جليلتان** . . لا ينالهما إلا المتقون : إنها **نعمة الدفع** . . التى يدفع الله بها عنك البلاء . . بما غفر من ذنوبك .. وبما ستر من عيوبك

ثم **نعمة النفع** التى تلاقى فيها من نعيم الجنة ما يبقى به القلب حيا لا يموت .. لأنه فى جوار الحى الذى لا يموت .

وهكذا المتقون . . يعيشون فى ربيع دائم . .

وإذا كان الموت هو نهاية كل حى . .

وإذا كان العمر : سواء : قصيره والطويل . . فإن المتقين يجعلون من عمرهم أعمارا . . حافلة بجلائل الأعمال . . وإذا كان الليل والنهار يعملان فى التافهين هدما . . فإن المتقين يعملون فيهما . . فهم أثبت قدما .. وأكبر ثروة . . حين لم يضيعوا من عمرهم لحظة .. فكان الوقت لديهم أقل من أعمالهم الجسام العظام . .

وبينما يعودون إلى ربهم فرحين مستبشرين . . فإن غيرهم ضيع الوقت . . فعاد بالمقت . .

ويا ويح الذى عاد إلى ربه من رحلة السراب .. صفر اليدين .

إن المتقين لم يعقوا أيامهم التى كانت حافلة بالبركة :

كانت صلواتهم . . ميزان يومهم

والجمعة . . ميزان الأسبوع

ورمضان . . ميزان العام

والحج . . ميزان العمر كله . .

وكانت لهم عزيمة ماضية . . أعانتهم على عمل الخير . . ثم نظروا . . فإذا وجدوا عملا يكرهون الموت من أجله تركوه . . ثم مضى بهم قطار العمر . . على معنى السداد إلى يوم الميعاد .

وعورة الطريق

ولكن الرحلة شاقة . . والزاد قليل . . وعلى جانبى الطريق عوائق هى جسر التعب الذى لا بد من تجاوزه . .

وإذا كنا بالعمل نصل إلى القمة .. فإننا بالصبر الجميل نسكن هناك فى جنات عدن .

وهكذا يفعل المتقون . . فى الوقت الذى تصير فيه أعمال العابثين هرولة فى فراغ :

يحاول فيه قائد السيارة أن يمضى . . لكن خزان الوقود خال من الطاقة الدافعة . .

وإذا كانت الدنيا متاحة للصالحين والكالحين على سواء . . فإن نتيجة المسعى لم تكن واحدة :

إن الليالى للأنام مناهل

تطوى و تنشر بينها الأعمال

فقصارهن مع الهموم طويلة

وطوالهن مع السرور قصار

ومن بين ما تعى الذاكرة ذلك المشهد الفريد :

اشتكى التلميذ إلى أستاذه أنه يجاهد نفسه . . وعلى الدوام . . فى محاولات مكرورة لأخذها بعمل الخير . .

لكنه كلما جاهدها وظن أنه ناج من كيدها . . إذا بها تغلبه فى نهاية المطاف .

فأجابه الشيخ قائلا :

أنت بخير مادمت على ذلك .. وتلك صفة المتقين . .

فقال له تلميذه :

ما هو المخرج إذا ؟

فقال له شيخه :

المخرج هو : ما تفعله . . فاصبر . . وما صبرك إلا بالله والعاقبة لك . .

وكأنما أحسس الشيخ من تلميذه أنه غير مقتنع بالجواب

فقال له :

إنك كلما جاهدت . . ارتقيت .

ولكل مرحلة جهادها . . ولها كذلك ثمراتها . . فاستمر على ما أنت فيه .. فأنت صاعد فى درج الكمال . . وإن لم تشعر .

ومن تلمح حلاوة العاقبة . . هانت عليه مرارة الصبر .

وهكذا يحاول الشيخ أن ينقذ تلميذه من مرارة الواقع الذى يرميه بالهموم والغيوم . . ليستشعر الغاية الجليلة التى تنتظره هناك . . فإن فعل . . فقد وصل !

وبهذا المنطق العاقل . . أعان الأستاذ تلميذه . . فعبر به مخاطر الطريق . .

الطريق الذى تترصدنا فيه قوى الشر . . وحتى الآن . . هذه القوى التى صارت جنديا من جنود إبليس . . تحاول أن تقيد خطونا . . حتى لا نواصل المسير . .

وعند كتابة هذه السطور . . ترامى إلى ذلك النبأ الذى يعكس ضراوة العداوة . . والذى يقول :

إن جهة معينة .. وفى دولة ما أنتجت مائة مسرحية . . وفى قرن من

الزمان . . كلها مرصودة لتشويه صورة المسلم . . وصده عن سبيل الله .

ولقد تنجح محاولاتهم بالتحكم فينا . . لكن ذلك بسبب من معاصينا .

وقد تشتد المحنة . . وتتراكم مخاطر الطريق .. ولكن المتقين ما يزالون ينقلون خطاهم على الطريق . . بما يملكون من الكتاب المحفوظ . . الخالد .. الذى لا يقبل التغيير ولا التحريف . . وذلك شأنهم الذى حرم منه غيرهم . .

ومضيهم على الطريق . . ليس حماسا واندفاعا لا يمكن من الرؤية مانعا من التحليل والتعليل [جعلتهم طبيعتهم مرآة لأنفسهم ولغيرهم] :

يفكر الناس بعقولهم .. ويحسون بقلوبهم .

وإذا كان هناك من العابثين من يضحك لاهيا . . ليضحك الناس الذين يضحكون منه أخيرا . . فإن المتقين يفكرون . . ثم يعتبرون . . عاملين آملين . . ناجين بالورع والحذر من كل عوائق الرحلة الطويلة .

وإذا كان أعداؤهم يريدون إخراجهم من الاسلام إلى الإستسلام بسبب عجزهم وكيد عدوهم . . فإن المتقين لا يمكنونهم من ذلك . . لأن المتقى يحذر إلى الحد الذى قد يدع مالا بأس به . . حذرا مما به بأس !

فــرصة العمـــر

وقبل أن تفلت من بين أيدينا فرصة النجاة .. يمن علينا تعالى بصيام شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن . .

إنه الربيع الذى يغذى الأرواح .. وبه تزداد القلوب إيمانا .

وإذا كان عشاق الدنيا ينظرون إلى خيوط الفجر . . فإذا هى فى حسهم سراب . . فإن الصائمين يوقنون بأن الفجر على الأبواب .. ومن ثم يستبشرون ويستعدون للإقلاع .

ذلك بأن الوصول إلى المأمول متحقق فى رمضان بالذات . لماذا ؟

١ – لقد قيد الله تعالى فيه الشياطين .. فلا عوائق .

٢ – ثم وعدك فيه بمغفرة يمحو بها الله تعالى ذنوبك [أوسطه مغفرة]

٣ – وبهذا يتاح لك مالا يتاح فى شهر غيره . . حين يرق قلبك .. نافضا عنه صدأ الشهوات . . لينبعث منه نور كاشف : ترى به الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام : بين الصالح والطالح . . لتصبح من بعد محكوما بالمبادىء لا بالمصالح . . فمصلحتك الكبرى . . فى الصلح مع ربك سبحانه وتعالى .

وقد كان رمضان تلك الفرصة السانحة .

ولقد تكون فقيرا معدما . . وقد ترى من يمشى بين يديك مختالا فخورا

بما يملك من مال ومتاع .

ويكفيك عزاء أنك فى رمضان صرت حرا لوجه الله . . من حيث صارت إرادتك حرة طليقة . . وإذا كنت لا تملك شيئا من حطام الدنيا .. فيكفيك شرفا وتيها . . أن شيئا فى الدنيا لا يملكك !!

وإذا كان هناك من المترفين من ينظر إليك . . ولايراك . ومن يسمعك . . لكنه لا يستمع إليك . فإن الله تعالى حسبك وهو ناظر إليك . . رحيم بك . . غفار لك . . وكفى بهذا الشرف غنى وجاها .

وفى سليمان عليه السلام عبرة :

لقد كانت المغفرة أمله الكبير . .

ولئن كان من حقه أن يستمتع بمباهج الدنيا . . فإن ذلك لا يغنى فتيلا عن مغفرة ذنوبه . .

وهو ما رجاه من مولاه . . فى اللحظة التى طلب فيها مناعم الحياة . .

يقول عز وجل على لسانه :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾[1]

---

١ – ص : ٣٥

إنه يجعل من الاستغفار بابا إلى الرخاء . . وإن ملكا عريضا بلا مغفرة . . لهو البلاء المبين وإن مغفرة يعود بها المسلم من رحلته الكادحة لهى أثقل فى ميزان حسناته من كل متاع .

وقد ترى فى دنيا الناس رجلا كان **نجما لامعا** . .

نجما فى سماء الزمان :

فى سماء السياسة . . أو الاقتصاد . . أو الاجتماع . . ولكنه فى سماء الخير . . صفر على الشمال . .

إن أجهزة الإعلام . . لتتغنى باسمه . . وتنوه بشمائله . . لكنه ساقط فى الاختبار العملى . . ممزق القلب . . حين تتنازعه آلهة المادة التى صار عمره معها بددا . فى الوقت الذى صار المتقى فيه موحدا متوحدا يرجو حبيبا واحدا .. فهو فى غناء .. ولعله ذلك الذى عناه «ابن الفارض» :

يانسيم الريح قولى للرشا :
لى حبيب : حبه وسط الحشا
لو يشا يمشى على خدى . . مشى
روحه روحى وروحى روحه
إن يشأ شئت . . وإن شئت يشا !

باب الوصول

ولقد كان الرجل الصالح يحاول الوصول . . فكان يصلى . . وكان يحج

. . فلعله أن يسمح له بالدخول من باب الصلاة . . أو باب الحج .

ولكنه يجد الطابور بين يديه طويلا . .

ومن ثم . . قرر أن يكثر الاستغفار . . من حيث كان باب الاستغفار أوسع الأبواب إلى مرضاته تعالى . . هكذا تعلمنا من سليمان عليه السلام .

بُعد المشرقين :

وقد كانت المسافة الفاصلة بين المتقين . . والجاحدين واسعة واسعة :

فبينما يجأر المتقون بالدعاء والرجاء . . أن يثبتهم الله تعالى على طريق الصفاء . . إذا أنت في مواجهة قوم يمدون أيديهم في محاولة لإغلاق باب الدعاء والرجاء فيما يشبه المحادة لله تعالى . .

ونقرأ في ذلك قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1]

ولكن ا ورسوله محمداصلى لن يمطره بالحجارة أبدا . . وإنما هو الرحمة المهداة . والنعمة المسداة . .

وخطته المثلى في الرد على من عاداه هي .

أن يطيع ا تعالى فيمن عصاه سبحانه فيه . ذلك بأن الرسول

---

١ - الأنفال : ٣٢

صلى الله عليه وسلم لم يرسله ربه تعالى . . مصيطرا عليهم . . ولا معذبا لهم . . ثم هو من دمهم ولحمهم . .

ثم إن سنة الله الماضية ألا يعذبهم سبحانه مادام الرسول فيهم كشأن الأنبياء جميعا .

وتلك واحدة من خصائص المتقين .

وهى أنهم لا يحقدون . . ولا ينتقمون . . وعلى ربهم يتوكلون .

وقد تسول لهم أنفسهم يوما أن يكون ردهم عنيفا . ولكن ليكون سبيلا إلى إيقاظهم ليظلوا بالحكمة مستبصرين :

قال معاوية رضى الله عنه لرجل من اليمن :

ما كان أجهل قومك حين ولوا عليهم امرأة

فرد اليمنى على الفور :

قومك أجهل من قومى .. فهم الذين قيل عنهم :

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ولم يقولوا . . فاهدنا إليه .

ولقد كان الدرس قاسيا . . ولكنه عاد بمعاوية رضى الله عنه إلى الحق المبين . . وكان ذلك درسا لبعض المتحمسين اليوم . . والذين يزين لهم الحماس أنهم دون الناس جميعا . . على الحق . . فيتسرعون . . ثم يندمون

وتفرض عليهم الدعوة أن يكون عقلهم أمام لسانهم ليكون النطق صوابا .. وليصير الرد عتابا . . لا عقابا !

من بركات رمضان

يقول عز وجل :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ .... ﴾ (١٨٥) البقرة

أجل . . لقد كان القرآن هدى : دليلا قائما . . ومتاحا ولكل البشر .

القرآن الكريم فى رمضان لهداية الإنسان . . وتأمل : كيف تحدى القرآن العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه . .

ولكنهم عجزوا .

ويعنى ذلك :

أن كل آية فى القرآن تتحداهم أن يأتوا بمثلها . . فإذا تصورنا أن عدد آى القرآن تجاوز الستة آلاف آية . . تبين لك قوة هذا التحدى . .

وإذن . . فكل آية هى دليل على أن هذا القرآن من عند الله تعالى .

ومن الذين اهتدوا بالقرآن فى رمضان : الكاتب الأمريكى « هلمتسكى » والذى يقول :

وكنت غير مستعد لها تماما . . على عكس المسلمين فى الدول الإسلامية.

فالصوم علاقة إيجابية مع الجسم : تؤهله لتحمل أعبائه وأثقاله .

وبه نصبح أكثر تحللا من إلحاح رغباتنا . وأكثر قربا من تذوق حلاوة الحب الإلهى الخالص . . الذى يدفعنا إلى حب جميع ما حولنا : من بشر . ومن كائنات .. ومن أشياء .

إن الصيام أيقظ لدىّ الضمير وأعطى لروحى شفافية وصفاء نفسيا وعقليا جعلنى أقدر على سماع أنات المحتاجين المكتومة .

إن الصيام فى جوهره :

تضحية بكل الرغبات المادية . . فينشط فينا تطلعنا إلى الله الرحيم . ويساعدنا على الاقتراب من الحقيقة] .

من مشكاة النبوة

وهذه هى الآثار النفسية والعقلية والسلوكية والتى شهد بها شاهد من بنى إسرائيل . . هى شعاع من مشكاة النبوة .. تؤكد ما للصيام من أثر عظيم . . يحدث به الله تعالى التغيير فى كيان الإنسان . . وتؤكد أيضا كيف كانت أوامر الشرع . . حكيمة . . ونواهيه . . حازمة . ومواعظه بليغة

إن تجربة هذا العالم الغربى . . مردودة إلى ما قررته السنه المطهرة من أهمية الصوم . . الذى يتفرد فى آثاره بما لم تحظ به فريضة أخرى . .

على أهميتها :

سأل أبو أمامة رضى الله عنه رسول الله صلى . . عن عمل ينفعه قال :

قلت : يارسول ا مرنى بعمل . قال :

عليك بالصوم . . فإنه لا عدل له .

قلت : يارسول الله : مرنى بعمل . فقال :

عليك بالصوم .. فإنه لا عدل له .

فلما سألته الثالثة قال :

عليك بالصوم فإنه لا مثل له][1]

إن أبا أمامة يحس من نفسه طاقة ترشحه لعمل ما يقربه من الله عز وجل .

من أجل ذلك يتجه إلى الرائد الذى لا يكذب أهله . . ليدله على عمل .

فلما أخبره صلى بالصيام . . كأنما استقله طالبا المزيد . .

وينتهي الحوار بأن الصوم يكفيه .. فلا نظير له فى الثواب بين الفرائض

١ – رواه النسائى والحاكم وصححه .

جميعا . . لما يحصله المسلم عن طريقه من الثمرات اليانعات والتي نبه إليها هذا الكاتب الغربى .

قال التلميذ لأستاذه

ومع المغالاة بقيمة الصوم . . فنحن منهيون عن صيام يوم الجمعة . . فلماذا ؟

قال الشيخ :

أولا :

لأنه يوم من أيام الإعلام الإسلامى . . يُرِى المسلمون فيه خصومهم من أنفسهم قوة .

وثانيا :

هو يوم ذكر . . والعافية تعين على الإكثار منه .

وثالثا :

هو يوم عمل . . لا يوم كسل . . كما يقول عز وجل [فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض] . . فليس هو كما نفعل يوم راحة واستجمام . . ولكنه فرصة نشاط وحركة . . والصوم مانع من ذلك كله . . فكان يوم فطر . . لا يوم طعام .

البطنة تغلب الفطنة

يقول صلى :

[ما ملأ ابن آدم وعاء قط شرا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . . فإن كان لا محالة : فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه][1]

ومن إشارات الحديث الشريف :

١ – إن غاية المسلم الكبرى هى : العبادة . . طاعة لله تعالى وشوقا إلى جنته .

٢ – ولكى يصل إلى تلك الغاية . . لا بد أن يسعى لها سعيها . . مرتفعا بنفسه فوق عوائق الطريق . . وفى مقدمتها الشبع إلى حد التخمة . . والتى تخلد به إلى الأرض مقصوص الجناح عاجزا عن الطيران بسبب ما تخلفه

١ – رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه .

لقيمات يقمن صلبه:

يقمن صلبه فلا ينحنى لأحد . بل يظل مرفوع الهامة مستوى القامة على الرأس لا يحمل منّة من أحد !

من دروس المربين

وقد تكفل المربون بتعميق مرمى هذا الحديث فى قلوب الشباب حرصا على طاقاتهم أن تذهب بددا على موائد الطعام :

[قال جعفر :

كنا نأتى «فرقدا السَّبَخِى» ونحن شببة فيعلمنا :

إن من ورائكم زمانا شديدا : فشدوا الأزُر على أنصاف البطون .

وصغروا اللقم . . وشددوا المضغ ومصوا الماء مصا .

وإذا أكل أحدكم فلا يحلّن إزاره فتتسع أمعاؤه . . وإذا جلس أحدكم ليأكل فليقعد على إليته . وليلزق بطنه بفخذيه .فإذا فرغ . . فلا يقعد . . وليجىء .. وليذهب واحتموا فإن ورائكم زمانا شديدا][1]

وقد كانت **توجيهات الحكماء** تترى .. فى محاولات مكرورة لأخذ الناشئة بما يليق بالمسلم :

[1] – عيون الأخبار لابن قتيبه – كتاب الطعام .

[رأى رجل رجلا يأكل لحما فقال له :

لحم يأكل لحما ؟! .. أف لهذا عملا !!

وكان عمر رضى الله عنه يقول :

[إياكم وهذه المجازر . . فإن لها ضراوة كضراوة الخمر !

وكانت له توجيهات لأبنائه بخاصة .. ومنها :

[يابنى :
عود نفسك الأُثرة[1] ومجاهدة الهوى والشهوة .
ولا تنهشن نهش السباع .
ولا تخضم خضم البراذين
ولا تدمن الأكل إدمان النعاج
ولا تلقم لقم الجمال .
فإن الله تعالى جعلك إنسانا وفضلك
فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا .
وإحذر سرعة الكظة[2] وسرف البطنة]

لماذا ؟ ذلك ما يشير إليه قوله :
[لأن البطنة مما تسفه الأحلام] .

---

١ – أن تكون لك ذكرى تكون لك مأثرة .
٢ – الامتلاء من الطعام .

والمسرفون فى الطعام أموات بالقوة :

[لأن الشبع داعية البشم

وإن البشم داعية السقم

وإن السقم داعية الموت .]

فمن مات بهذه الميتة . . فقد مات ميتة لئيمة . . وهو مع هذا فهو قاتل نفسه وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره .

يابنى :

والله مأدى حق الركوع والسجود ذو كِظة . ولا خشع لله ذو بطنة .

والصوم : مصحه . والوجبات – الأكله الواحدة فى اليوم – عيش الصالحين .

أى بنى :

لأمر ما طالت أعمار الهند وصحت أبدان الأعراب . ألا إن الداء هو : إدخال الطعام على الطعام .

أى بنى :

لم صفت أذهان الأعراب وصحت أبدان الرهبان مع طول الإقامة فى الصوامع حتى لم تعرف «النقرس ولا وجع المفاصل ولا الأورام . إلا لقلة ما يصيب من الطعام .

وكيف لا ترغب في تدبير يجمع لك : صحة البدن وصفاء الذهن . وصلاح المعى وكثرة المال والقرب من عيش الملائكة ؟!

أى بنى :

لم صار الضب أطول شىء عمرا إلا أنه يتبلغ بالنسيم .

ولم قال الرسول صلى :

«إن الصوم وجاء»[1] . . إلا ليجعله حجازا دون الشهوات .

أى بنى :

قد بلغتُ تسعين عاما .. ما نفض لى سنّ ولا انتشر لى عصب [أى انتفخ] ولا عرفت ذنين أنف [سيلانه] ولا سيلان عين . ولا سلس بول .

ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد .

فإذا كنت تحب الحياة . . فهذه سبيل الحياة]

خلاصة الدرس

إنها محاولة من الوالد لأخذ الابن بعزائم الأمور . . قبل أن تغلب بطنه فطنته . . وقبل أن يذهب الطعام بعقله . . وليظل عزمه قويا .

---

١ – جزء من حديث أخرجه مسلم فى صحيحه .

أما بعد :

[فبئس العون على الدين

قلب نخيب : [جبان]

وبطن رغيب : [واسع الجوف نهم]

وقد كان لهذه التوجيهات من القداسة ما للحديث الشريف الذى أشار إليها إلى حد قال فيه سمرة بن جُنْدب رضى الله عنه لما قيل له : إن أباك أكل طعاما كاد يقتله .

فقال :

لو مات .. ماصليت عليه !!

نعمة الجوع ودرس فى الدعوة

يروى أن أعرابيا اشتاق إلى البادية . . وكان بالبصرة فقال :

أقول بالمصر لما ساءنى شبعى
ألا سبيل إلى أرض بها جوع ؟!

وهكذا . . يزهد الرجل فى حياة الرفاهية . . طامعا فى حياة التقشف والزهد جاعلا من الجوع أمله الذى يلح فى طلبه بعدما ملت المعدة فنون الطعام وألوان الشراب .

وإذا كانت العافية هى التى يطيب بها الطعام .. بغض النظر عن جودته أو دسامته . فإن الجوع نعم الإدام الذى يجعل من اللقمة وحصاة الملح غذاء شهيا يجىء والنفس راغبة فيه متطلعة إليه . .

ومن أجل ذلك قيل :
نعم الإدام الجوع ؟!

ونتساءل عن عمق هذه النعمة . فنواجه بالإجابة الشافية الكافية :

لأن الجوع . . ما ألقيت إليه قبله !!
فأنت بالجوع مشتاق إلى الطعام . . أى طعام . .

ومهما ألقيت فى معدتك الجوعى . . فإنه طعام مقبول . بل إنه ساعة الجوع يكون أطيب الطعام .

وهذا ما قرره الحكيم عندما سئل : أى الطعام أطيب ؟

فقال :

الجوع أعلم !

سل الجوع ينبئك بالخبر . . يخبرك بمتعة لو علمها المترفون لجالدوا الجائعين عليها بالسيوف !

ومن أجل ذلك كان إدخال الطعام على الطعام رذيلة فى منطق الإسلام . لأن ذلك مما يحرم الإنسان من الإحساس بمتعة الجوع . حين يتعامل مع نفسه كأنها الطفل المترف المدلل .. والذى يصير ، بالشبع الدائم على ما يقول الشاعر :

فأصبحت كالهيماء : لا الماء مبرد

صداها .. ولا قاض عليها هيامها

وإذا كان [طعام الاثنين كافى الثلاثة . وطعام الثلاثة كافى الأربعة][1] . . إذا كان الأمر كذلك . . فإن محاولة الانفراد بالمائدة ، أو توجيه الدعوة إلى القادرين دون الفاقدين . . يفقد المائدة بركتها بسبب من هذه الأنانية وتلك

---

١ – متفق عليه .

الشراهة :

قال صلى :

[شر الطعام : طعام الوليمة :

يُمنعها من يأتيها . ويدعى إليها من يأباها][1]

يقول علماؤنا :

معنى ذلك : أنه أقل الطعام مروءة . وأبعده عن استحقاق الثواب :

ذلك بأن الأمر فى هذه الولائم :
يدعى إليها المستغنون . .
وينحى المحتاجون .

مع أن الأصل أنها للفقراء الذين لا يستطيعون ضربا فى الأرض . جبرا لخاطرهم .. وحماية لهم من ذل السؤال .

وحين تكون الولائم على هذا النحو : فإنها تثير الأحقاد . وتقسم المجتمع الواحد إلى طبقات متناحرة متدابرة .

وعن مقصود هذا الحديث قالوا :

إنه حث لأصحاب الولائم ليدعوا المحتاجين ليتحقق بهذه الدعوة ما يلى :

---

١ – رواه مسلم .

١ – تكثير الثواب .

٢ – تحقيق مكارم الأخلاق .

٣ – إنشاء عواطف المودة .

٤ – التخلص من سلبية التعالى وحب الظهور .

ومن خلال ذلك كله يتراءى الجوع نعمة تذكر فتشكر . . بسبب من تلك الفضائل التى تأخذ الصائمين بها . . ومنها :

١ – الزهد .

٢ – والإحساس بالآخرين .

٣ – والإرتفاع . . فوق التراب . . شغلا بالقيم العليا .

وبهذا المعنى يمكن أن يكون الجوع شبعا .. والعكس أيضا صحيح : فقد يكون الشبع جوعا ؟!

يقول الشاعر :

وعادة الجوع فاعلم : عصمة وغنى

وقد يزيدك جوعا عادة الشبع !

ولقد كان الصيام واحدا من أنجح الأدوية التى بها تكون ملكات الإنسان فى أفضل حالاتها .

ومن وصايا لقمان لولده فى هذا الباب :

يا بنى :

كل أطيب الطعام . ونم على أوطأ الفراش وأكثر الصيام . وأطل بالليل القيام .

ثم جاء من بعده من فصل القول تفصيلا وسن من الآداب ما يجعل من الطعام طاقة دافعة . . مانعة من التخمة :

أوصى والد ابنه فقال :

إذا أكلت . . فضم شفتيك . ولا تتلفتن يمينا وشمالا .

ولا تلقمن بسكين أبدا . وإن كان في يدك سكين وأردت التقاما . . فضعها على مائدتك ثم التقم .

ولا تجلس فوق من هو أسن منك وأرفع منزلة .

وهكذا تتواصل الأجيال بهذه الضوابط التى لا تطلق يد الآكل حتى تطيش فى الصحاف . وحتى لا يصير الطعام غاية فى ذاته . . وإنما هو التبلغ الذى يحفظ على الجسم بنيانه فلا ينهار . . فرارا من التخمة التى تجعلك أنت الذى تحمل الطعام .. والمفروض أن يحملك الطعام بما يبثه فيك من طاقة .. ولا يتم ذلك إلا بالزهد والجوع . . الذى هو فرصتك لإراحة جهازك الهضمى من الأحمال الثقيلة الوبيلة .

أما بعد . .

فمن قواعد الطب :

أنه . . وفى فترة النقاهة . . يخفف الناقه من الطعام لماذا ؟

الجسم بالدخول فى معركة أخرى مع طعام جديد وعسير الهضم .

أجل : ينبغى ألا نحارب فى جبهتين !!

وفى الدعوة نقول مثل ذلك :

فقد يعلن المسرف على نفسه توبته . فاردا شراعه نحو مستقبل أفضل .

إنه إذن . . فى فترة النقاهة .

وإذن . فليس من الحكمة أن نكلفه فور توبته بأن يصلى الفجر جماعة . . وأن يصوم الاثنين والخميس .

يجب أن يكون التكليف يسيرا . . لأن هذا المسرف التائب مشغول بمعركته مع نفسه التى مازالت تلح عليه . . ليعود إلى ماضيه .

إنه الظلم : أن نفرض عليه أن يحارب فى جبهتين . . إن بقية من الهوى تناوشه من قريب . فلنكن عونا له على أمر الله .

من معانى الصبر

يقولون :

الصبر صبران :

فأعلاهما : أن تصبر على ما لا ترجو فيه الغنم فى العاقبة .

والحلم حلمان :

فأشرفهما : حلمك على من دونك .

والصدق صدقان :

فأعظمهما :

صدقك فيما يضرك .

والوفاء وفاءان : أسناهما :

وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه .

وهكذا المسلم دائما :

إنه يتحرك فى دائرة الفضيلة :

فهو بحكم إيمانه : صابر . حليم . صادق . وفى .

ولكنه بحكم إيمانه أيضا مأمور أن يكون من الفضيلة على قمتها . إنه فى معركة مع نفسه وهواها . . وغايته الكبرى أن يفر لا من السىء إلى الحسن .. ولكن من الحسن .. إلى الأحسن . . من الفاضل إلى الأفضل . .

وكان شعاره :

عليك بالصدق . . حيث ترى أنه يضرك . . فإنه ينفعك . . وإياك والكذب . . حيث ترى أنه ينفعك . . فإنه يضرك .

وفى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى قد يكذب .. لكنه سرعان ما يتذكر عائدا إلى قاعدة الحق .

ذلك . . بأن الصادق : يجوز عليه الكذب .

أما الكاذب : فإنه لا يصُدق أبدا .

استطراد

تعرض الأعمال على الله تعالى : الاثنين والخميس .

أما حديث : عرضها عليه صلى عليه وسلم . . فمرسل ، والمرسل من أقسام الضعيف، ومن ثم . . لا يحتج به وأما الذى يبلغه صلى فهو :

الصلاة عليه

فإن لله تعالى ملائكة يسبحون . ثم يبلغون ذلك . ومن صلى عليه مرة . صلى الله عليه بها عشرا .

وقد كان صلى عليه وسلم يتحرى أن يصوم الاثنين والخميس ولما سئل في ذلك قال :

هذان يومان تعرض فيهما الأعمال على الله تعالى وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم .

لكن صيام الاثنين له مزية خاصة :

فهو اليوم الذي ولد فيه منقذ البشرية من الضلال . .

وهو اليوم الذي بعث فيه رسولا من ربه تعالى .

بـاب الدنيـا

ولا بأس فى منطق الإسـلام من الدخـول إليـه إبتـداء عن طريق الدنيـا ليصل بالمسلم قدره إلى الآخرة سالما غانما :

لقد كـان الرجل يسلـم أول النهار رغبـة فى الدنيا . وعندمـا يأتـى المساء يكون الإسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس .

فلقد كانت البيئة نظيفة تعين على أمر اللـه من جيث كان الرفاق غير الرفـاق فـى الوقت الذى يحس الوافـد الجديد أنه كـان من الكفـر فى كـهف خانق مظلم . . ثم يفتـح عينيـه .. وأذنيـه . . فإذا هـو يرى . . ويسمـع غـير الذى كان يسمعه فى دياره ويراه . . وعندئذ يحدث التغير الكبير !

ونحن نعلم نبأ نفر من الصحـابة الذين ما إن دخلوا ساحة الإسـلام حتى تفجر فى كيانهم بحـر زاخر من الندم على ماقدمـوا . . ثم عزم أكيـد على التكفـير عـمـا قـدموا . وذلك فـى نفس اللحظة التى أعلنوا فـيـهـا الإسـلام . ومنهم ذلك الذى فرغ من النطق بالشهادة . ثم لم يعد إلى بيته باكيا شاكيا

.. وإنما سأل عن المعركة الدائرة الآن . . ليجود فيها بنفس طالما كادت للإسلام كيدا . . فكان له ما أراد .

[تأملات فى موقف هذا الرجل]

إن هذا الذى دخل الإسلام من باب الدنيا . وهو يعترف بذلك ولا بأس عليه .

كان هذا الرجل منطقيا مع نفسه . . ومع مجتمعه :

لقد دخل بستان الإسلام فاستنشق من روحه وريحانه ما أنعش نفسه . . التى صحت على جو مشبع بالطهر والجمال والكمال . . فاستيقظ من نوم الغفلة . . على عالم جديد غير كل معالمها .

ثم تلفت من حوله فرأى رفاقا على الطريق مختلفين عن رفاق الأمس من سمار الليل !

رأى رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . . فانعكست على قلبه أشعة من هداهم . . فلما رأى فى وجهها عيوبه . . بدأ وعلى الفور يعيد ترتيب بناء النفس . . فطلع على الناس عند المساء قمرا منيرا أو شهيدا قريرا :

تردى ثياب الموت حمرا . . فما أتى
لها الليل . . إلا وهى من سندس خضر

ومعنى ذلك : أن الإنسان ليس بناء ماديا . . ليس حجرا يوضع فوق حجر . ولكنه نبات : ينمو داخل نفسه ذاتيا . .

وعلى المدى الطويل . . على مايقول الشاعر :

داويت متئدا وداووا طفرة

وأخف من بعض الدواء الداء

وهذا ما تتكفل به فريضة الصوم . . وعلى مدى ثلاثين يوما .

كيف تتنامى شخصية الإنسان

يقول العلماء :

[أرض الفطرة : رحبة . قابلة لما يغرس فيها : فإن غرست شجرة الإيمان والتقوى . أورثت حلاوة الأبد .

وإن غرست شجرة الجهل والهوى . . فكل الثمر مر]

وكأنما الإيمان «بقْلة» :

إنها قابلة للنمو . والامتداد .

لكنها لا تنمو إلا فى أرض خصبة .

ولا تكون خصبة إلا بالكلم الطيب والعمل الصالح . . والنظر فى الدلائل .

أما فى الأرض الجدباء :

فإنها تضمر . . ثم تذهب بددا ..

وكأنما الإيمان «بَقْلة» :

إنها قابلة للنمو . والامتداد .

لكنها لا تنمو إلا فى أرض خصبة .

ولا تكون خصبة إلا بالكلم الطيب والعمل الصالح . . والنظر فى الدلائل .

أما فى الأرض الجدباء :

فإنها تضمر . . ثم تذهب بددا ..

وماجدبها إلا بالمعاصى .

[كمثل نواة غرستها . فصارت شجرة . . ثم أثمرت فأكلت ثمرها . وغرست نواها :

فكلما أثمر منها شىء جنيت ثمره . وغرست نواه :

وهكذا : إذا علقت جذور المعرفة فى أرض القلب . نبتت فيه شجرة المحبة .

فإذا تمكنت وقويت أثمرت الطاعة فلا تزال الشجرة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها] .

وتلك هى وظيفة رمضان .. الذى يتعهد اللـه تعالى به «بقلة» الإيمان .. لتكون شجرة باسقة مثمرة ظليلة .. بعدما أرهق المسلم نفسه بالتطواف بين مناعم الدنيا على مدى أحد عشر شهرا .

إنها فرصة يزيد فيها الإيمان :

وإذا اختلف العلماء طويلا : هل يزيد الإيمان وينقص . فإن الله تعالى بالصوم يبين لهم أنه خلاف لا طائل من ورائه . . وخير منه أن نركز على الأسباب التى بها يزيد هذا الإيمان ويربو . . وتلك وظيفة رمضان . . والذى هو سبيلنا إلى تحصيل ملكه التقوى .

فى مجال التطبيق

ومازالت حاجتنا متجددة إلى التركيز على الرواد الذين جعلوا من التقوى سلوكا عمليا . . حتى نترسم خطاهم . .

وإذا كان الحق تعالى يقول :

﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ ١٣٢ ، طه

فإنه تعالى يقول :

﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ ٨٣ القصص

ذلك بأن قيم التقوى لا تصل إلى المأمول هكذا مجردة .. نظرية .. لكن لابد من أن يتمثلها رجال . . يتخذونها لهم شرعة ومنهاجا فى كل ما يقولون وما يفعلون . . وما يضمرون . . وما يظهرون .

فالعاقبة حقا . . للتقوى . .

ولكن لن تكون هذه العاقبة إلا للمتقين الذين اتخذوها لهم شعارا ودثارا .. **فمن هم المتقون ؟**

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى وصفا للمتقين :

[**الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس** . .] الآيات من سورة آل عمران

المتقون رواد التكافل الاجتماعى :

إنهم صورة حية لمبدأ «التكافل الإجتماعى» :

إن المال نعمة من الله تعالى . . لكنهم لا يهتمون به لذاته . .

وإذا كان هناك من البخلاء من يجمع ماله ويعدده . . جاعلا متعته الحقيقية في النظر إليه والإحساس بالغرور بناء عليه . . فإن لله رجالا يعدون النعمة . . نعمة .. لأنها سبيلهم إلى مرضاة الله تعالى . . بالإنفاق على عياله !

ومنهم ذلك الذى أصيب بالفالج – الشلل – فكان يدعو الله تعالى بين يدى كل صلاة أن يخفف الله عنه بلاءه حتى يتمكن من الوضوء . . وكان حريا به أن يسأل الله تعالى رفع البلاء . . ثم يطلب العافية .. ولكنه لا يطلب نعمة العافية لذاتها . . وإنما يرجوها من حيث كانت سبيله إلى عبادة

وأحيانا يحس الإنسان أنه غني بالمال . . وبالسلطان . .

فإذا ذهب السلطان . . وفقد المال . . ذهبت في نفس الوقت دعامة الحياة .

أما الغنى الحقيقي فهو الله سبحانه وتعالى والذي إذا فنى ملكه تعالى . . ما نقص شيئا . . فهو الغني بذاته عز وجل :

وأفقر الناس إليه تعالى . . أغناهم به
وأذلهم . . أعزهم به
ضعيفهم بين يديه . . هو أقواهم
وأجهلهم عند نفسه .. هو أعلمهم
وأمقتهم لنفسه . هو أقربهم إلى مرضاته

وكان دعاؤهم منسجما مع هذه المعاني : وذلك قول أحدهم :

اللهم اجعلني شكورا صبورا ..

اللهم اجعلني في عين نفسي صغيرا وفي أعين الناس كبيرا .

لقد كان الإنفاق عندهم عاطفة سائدة . . فإذا لم يجدوا ما ينفقون تحايلوا :

في غزوة تبوك حمل رجل «واثلة بن الأسقع» بالتعاقب على بعيره وقال :

على أن تعطينى سهمك ! . . فلما أبلغه . رفض أخذ السهم . . والحكمة هنا :

أن يركبه أولا دون إشعاره بالحرج !!

والكاظمين الغيظ

كان الرجل الأهوج يقول للرجل الصالح متحديا فى لحظة غضب لئن أسمعتنى كلمة واحدة . . لأسمعتك عشرا . فما يكون جواب الرجل المتقى إلا أن يقول :

ولو أسمعتنى عشرا . . ما أسمعتك واحدة !

وكأنما يقول له :

اضرب من شئت . . فإنما تضرب نفسك ..

واشتم من شئت . . فإنما تشتم نفسك ..

ولقد كان من وصاتهم :

لا تذهب الزمان فى مماشاة الجهال . . فذلك أمر لا آخر له . . إنها معركة حربية : نعرف متى تبدأ . . لكننا لا نعرف متى تنتهى !

دعـاة السـلام

والمتقون دعاة سلام . . وهم الذين قال الله تعالى فيهم :

[والعافين عن الناس]

إن الحياة لا تستأهل أن نحرق فى سبيلها أعصابنا . وقد ينال الإنسان باللين أضعـاف مـا ينال بالشدة .. ولقد تواصى المتقون بالسلام .. الذى يرفرف علمه فى جو السماء فإذا الحياة جنة ونعيم مقيم .

ولقد كانت لهم فى هذا الباب ممارسات طيبة حلت بسببها البركة . . وذهبت الهلكة .

ذهب **جرير بن عبد الله** ومعه صاحب له . إلى سلمان الفارسى فى الشام . وقالا له :

جئناك من عند أخيك – أبى الدرداء – قال :

فأين هديته ؟ فقالا :

لم يقل إلا : أقرآه السلام . قال :

وهل هناك أعظم من هذا ؟

وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى السوق . وما له فيه من حاجة . وإنما يذهب إليه فقط ليلقى السلام على من هناك ! وكأنما أراد أن يلطف بالسلام حرارة الجو المشحون بحب الدنيا . . ليعتدل الميزان فى يد الإنسان

فى مدرسة المتقين

ولأن الطريق وعر . . موحش .. فلا بد من رفيق على هذا الطريق . وقد كان للعلماء دورهم المرموق فى التمكين للفضيلة فى قلوب تلاميذهم عبر هذا الطريق بالتوجيهات . . وقبل ذلك بالقدوة الحسنة :

ومن دروسهم ما قاله أحدهم لواحد من تلاميذه :

اختر واحدا من هؤلاء الثلاثة :

الدين . الحياء . العقل .

فقال : أختار العقل !

فقال الشيخ للدين والحياء : اذهبا فلا حاجة له إليكما .

فقالا :

لا ننصرف . . لأننا أمرنا أن نكون مع العقل حيث ذهب !

وهكذا يلفت الشيخ النظر إلى أهمية العقل . . بهذا التوجيه الرمزى . . والذى يركز فيه على أهمية العقل . . ودوره العظيم فى اكتشاف الحق . . مجادلة باللسان . . لا مجادلة بالسنان !

ولقد دل سؤال التلاميذ على ذكائهم . . وعمق رغبتهم فى أخذ أنفسهم بخلال الخير والبر عن طريق رواد لا يكذبون أهليهم :

قال طالب العلم لأستاذه :

دلني عن العمل .. فقال الشيخ :

تعمل . . وتواصل العمل . . حتى يظن بك أنك لم تعمل حسنة قط !

ويعنى بذلك : المبالغة فى السرية . . فرارا من الرياء . . ويعود الفتى ليسأل عن مدى شمول هذا الحكم فيقول لشيخه :

هل هناك ما أجهر به من عملى ؟ فقال له :الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. فذلك دين الله .

لقد كان الدعاة من العلماء أطباء نفوس قبل أن يشرحوا الدروس !

يتدبرون . . ويحللون . . ثم يوصون بالعلاج الذى به يستأصلون العلل :

ومنهم ذلك العالم الذى قال له تلميذه :

إنى أخاف من الموت ؟!

فقال له شيخه وهو يحاوره :

لعلك لم ترسل مالك إلى هناك . . ولوأنك أرسلته ما كنت تخاف . . لأنه سيكون أنيسك فى وحدتك !

ومعنى ذلك :

أن الشيخ يضع أصابعه على سبب ذلك الخوف من موت سيسلم السائل إلى آخرة لم يدخر لها شيئا !

وهو المعنى الذى يشير إليه قوله تعالى :

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ (٤٦) الكهف

فالمال والبنون زينة يتنافس فيها المتنافسون . . ولا تثريب على الإنسان إذا أحب دنيا هى وليمة معروضة عليه . .

لكن الإنسان العاقل . . يتجاوز هذا البريق الخداع . . الزائل . . ليعلق همته بالصالحات . . الباقيات . . والتى ستكون أنيسه فى قبره . . ثم فى عرصات القيامة ..

ويحدثنا التاريخ أن أسرة اشتكت عائلها إلى عبد الله بن المبارك رحمه الله

وكانت شكواهم من كثرة إنفاقه في سبيل الخير غير عابىء بحاجات أسرته .

ولما سأله ابن المبارك فى ذلك قال له :

من كان يسكن هنا . . ثم بنى له دارا هناك فى بغداد ويريد الانتقال

إليها . . هل يترك هنا شيئا ؟!

فكيف إذا كانت النقلة من الدنيا . . إلى دار هى الحيوان ؟!

القدوة الهادية

ولم تكن قصارى العلماء أن يقولوا كلاما فيه من التزويق والتلفيق ما فيه !

ولكنهم كانوا يقدمون القدوة من أنفسهم . . والتى تشهد بأنهم كانوا يفعلون . وكان ابن المبارك يقول :

أحب الصالحين . . ولست منهم
وأبغض الطالحين . . وأنا شر منهم !

وإذن . . فقد كان من سوء خط هذه الأسرة أن تشكو عائلها إلى ابن المبارك . . والذى كان مع رب الأسرة على خط الزهد . . وهضم النفس . .

لقد كان العلماء زهادا . . روادا على الطريق . . ينصفون الناس من أنفسهم فلا يظلمونهم .

كانوا يملكون لونا من الحساسية جعل حياتهم عناء موصولا . . كانوا يعتقدون أن خطأ واحدا يدخلهم فى زمرة الظالمين . . منطلقين من مثل قوله تعالى [إنى أعظك أن تكون من الجاهلين] فقد حذر الله تعالى نوحا حتى لا يكون من الجاهلين بسبب ذنب واحد !! فليحذر الذين يخالفون عن أمر

الله .

ولقد ظل الشيوخ وتلاميذهم على هذا المستوى الراغب فى الصعود على مدارج الكمال . .

كان التلاميذ يستفتون . والشيوخ يفتون . . حرصا من الطرفين على فرصة يعلو فيها البناء ويسمق :

قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ :

دلنى على البناء فقال له :

البناء هو : ما سترك عن الشمس . . وأكنك من المطر .

فقال : دلنى على اللباس : فقال :

ما أدفأك . . وستر عورتك .

فقال : دلنى على الضحك فقال : التبسم . . ولا يسمع لك صوت .

فقال : دلنى على البكاء : فقال : ابك خشية لله تعالي ما شئت فقال : دلنى على الطعام فقال :

ما سد الجوعة . . ودون الشبع .

وهذا هو طريق الفلاح . . لمن أراد الفلاح .

ماذا بعد الصيام ؟!

معركتنا مع النفس . . طويلة النفس . .

ومعركتنا مع الشيطان . . تواكب الزمان . .

ونقرأ فى الأولى قوله عز وجل :

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ[1]

ونقرأ فى الثانية قوله تعالي :

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)[2]

وهكذا كان قدر الإنسان : أن يحارب فى جبهتين :

يجاهد نفسا أمارة بالسوء .

---

[1] – يوسف ٥٣ .

[2] – ص ٧٩ : ٨٣

«أمارة» بصيغة المبالغة . . لاتني .. ولا تفتر . تباشر ضغوطها على الإنسان . . ولا تهدأ أبدا : تدور حوله بكل صور التزيين . . حتى توردة التهلكة .

ثم يجاهد الوسواس الخناس .. الذى يباشر الغواية كقوة تنفيذية . . لا تكتفى بالوسواس . . وإنما تحاول فرض إرادتها .. بالأمر بالسوء .

أسلحة الدفاع

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أن أتاح له فرصة الحصول على عدة تمكنه من تحقيق النصر المبين على الجبهتين :

ومن بين هذه الأسلحة : الصيام . . الذى صهر الله تعالى به الأمة حتى صارت كيانا واحدا يحارب به عدوا مشتركا هو :

النفس . . والشيطان

سلاح الأمل

ومن هذه الأسلحة : الثقة الكاملة بنصر الله والفتح :

فإذا كانت النفس «أمارة» . . تبالغ فى إغواء الإنسان فإن مغفرة الله تعالى أوسع منها .. ورحمته كذلك وسعت كل شيء كما يفيد قوله تعالى بصيغة المبالغة :

يغفر الذنب . . وإن جل

شكور . . يقبل المعروف . . وإن قل

وبهذا الأمل العريض في رحمة رب كريم غفور شكور .. تتبدد لدى الإنسان كل المخاوف التي لا ينبغي أن تناوش الإنسان متى كانت المغفرة والرحمة بهذه السعة . . وهذا الشمول .

إن النفس كما يقول المربون :

[ألفت المحسوسات . والتذت بها . وعشقتها . إنها منجذبة إلى العالم الجسماني . وكان ميلها إلى الصعود : إلى العالم الأعلى نادرا] وهي مسلطة على الإنسان . . حتى يهبط معها . . ومن أجل ذلك . . كان الأمل في رحمة الله ومغفرته في طليعة الأسباب التي تفتح الأبواب أمام التائبين . . حتى يعودوا إلى ربهم راشدين . . ربهم الله الذي يقبل عنهم التوبة . . فيمحو بتوبة ساعة ذنوب العمر كلها . . ثم . . وبعد التوبة يشفعهم فيمن يحبون .

أما فيما يتعلق بالشيطان :

ففي موقفه ما يؤكد ضعفه . . ويحدد معالم نهايته :

إنه عاجز . . لا يستطيع أن يضيف إلى عمره لحظة . . ثم إنه ذليل : معترف بعزة خالقه تعالى . . والتي يحاول أن يعود . بها كي تتحقق أمنيته

ففى موقفه ما يؤكد ضعفه . . ويحدد معالم نهايته :

إنه عاجز . . لا يستطيع أن يضيف إلى عمره لحظة . . ثم إنه ذليل : معترف بعزة خالقه تعالى . . والتى يحاول أن يعود . بها كى تتحقق أمنيته التى نالها . . لكن المعركة محسومة من الآن :

فلن يأتى يوم يمرح على الساحة وحده . . بلا منازع . . فهناك كوكبة المؤمنين المخلصين الذين يجاهدونه فى الله حق الجهاد . . وسوف يفلتون من قبضته . .

وحتى فى اللحظة التى يحقق فيها انتصارا وقتيا . . فإنهم . . وطبق المبدأ العسكرى : لن يتركوا له الميدان خاليا . . وسوف يظلون غصة فى حلقه . . حتى لا يحس للنصر لذة .

جهـــاد المـــؤمنـــين

وقد تصدى المخلصون لوساوس أنفسهم حتى عدوا عليها الأنفاس . . فقوموا جنوحها . . ومنعوا جموحها . . فحكموها قبل أن تتحكم فيهم . . وذلك طبق منهج راشد خلاصته :

مناقشة النفس الحساب . . شريطة ألا يدمروها بالحساب .

لتظل صالحة من بعد للعيش فى ظل الإيمان . .

إنهم توابون . .

توابون يبالغون فى التوبة . . إزاء مبالغة النفس فى أمرها بالسوء . .

إن المذنب منهم يجدد بعد كل ذنب توبة . . وعلى الدوام : كلما سقط . . حاول النهوض . . ومن فرط حساسيته أنه حتى كلما سها . . عد السهو ذنبا . . فتاب منه . . وحتى فى الطاعة : قد يعجب بنفسه يوما . . فيعد هذا غرورا ثم يتوب منه . .

بل أنه قد يتوب من فعل «الحسن» لأنه كان ينبغى أن يفعل الأحسن . . فى محاولة إرضاء من أرضاه سبحانه . . فأحسن إليه . .

منهج فى تقويم النفس

ويستهدف منهج تقويم النفس : القسوة فى مواجهتها . . على أن تظل صالحة للعمل . . كما أشرنا آنفا . .

يشير إلى ذلك دعاء أحد الصالحين :

اللهم : كيف أحب نفسى . . وقد عصتك
وكيف أكرهها . . وقد عرفتك . .

اللهم : كما هربت منى بالمعصية . . فردها إلى . . بالعفو .

إن الرجل هنا يحاسب نفسه . . لكنه لا يفرط فيها بالتخلص منها . . وإنما يتعلق بخيط الرجاء أن تعود إليه طاهرة مطهرة . .

وكان من دعاء أحد الصالحين :

اللهم اجعلنى فى عين نفسى صغيرا . . وفى أعين الناس كبيرا . . اللهم مارفعتنى درجة . . إلا وضعتنى فى عين نفسى درجة . .

إنه حريص على أن يكون فى الناس حسن السمعة نقى السيرة لكن أخوف ما يخافه هو : الغرور . وهو يفر منه لتظل نفسه صالحة مصلحة :

كان أحدهم يصلى فى الحرم فقرأ سورة الجاثية . حتى انتهى إلى قوله تعالى

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾١

فبكى طول الليل . . ثم خنقته العبرات . . فلم يستطع أن يتجاوزها . لقد تصور النار بعين بصيرته . . كأنما يشاهدها عيانا .

فكان ممن «وجلت قلوبهم» . . إنه واحد ممن :

فضح الموت حياتهم . . فلم يفرحوا بها . .

لقد تصور لسانه قلما . . وريقه مدادا . .

ثم تصور فى نفس الوقت أنه هو الذى يملى على «القعيد» ما يفعله من ذنوب . . فهب مذعورا . . يدعو ربه :

اللهم اغفر لى من ذنوبى : ما علمت منها . . وما لم أعلم وما أنت به

---

١ - الجاثية .

أعلم .

جهـــاد الشـيطان

وإذا كان من شأن المسلم أمام الخطايا أن يتوب . . وأمام الأحداث أن يسلِّم ويرضى . .

فإن من واجبه أن يجاهد عدوه الخارجى : الشيطان بما هو أهله :

جاء رجل إلى أبى حنيفه وقال له : يا إمام :

دفنْت مالا منذ فترة طويلة . . ونسيت الموضع الذى دفَنْته فيه .

فقال له الإمام :

ليس فى هذا فقه فأحتال لك . .

ولكن : اذهب فصلِّ الليلة إلى الغداة . فإنك ستتذكره إن شاء الله تعالى .

ففعل الرجل ما أمر به .

فلم يمض إلا أقل من ربع الليل . حتى تذكر الموضع الذى دَفَن فيه المال .

فجاء إلى الإمام فأخبره . فقال له الإمام :

علمت أن الشيطان لن يدعك تصلى الليل كله . . فهلا أتممت ليلتك كلها . شكرا لله تعالى ؟!

لقد رصد أبو حنيفة خطة الشيطان فى الإغواء . . فاستوعبها . ثم بدأ يضع خطته لإحباط كيده . . وهو ما لقنه الرجل الذى استمع إلى نصيحة آتت أكلها . . وبها فوت على الشيطان مأربه . . بهذا الأسلوب العملى الذى ذهب به كيدُه .

الحل العملى

وفى موقف أبى حنيفة رحمه الله درس للمسلمين اليوم حين يدورون حول المشكلة . . ولا يقتحمونها . . ثم يجدون أنفسهم فى النهاية . . فى نفس النقطة التى بدأوا منها ؟!

إن مشكلة المسلم فى مواجهته للشر هى :

أنه لا يستطيع أن يكتشف سبب المشكلة التى تؤرقه . .

وبالتالى . . لا يستطيع أن يضع حلا لموقف لم يستوعب جذوره . . وقد يعرف السبب . . ولكن ليس لديه رغبة ملحة فى حلها . . كما وأنه عاجز عن أخذ خطوات عملية فى اتجاه الحل الصحيح . . بينما القوى الشريرة تخنس خلف الستار تبث سمومها . . وهو لا يدرى . .

ولكن أبا حنيفة رحمه الله تعالى عرف سر المشكلة . . ومن ثم أعان الرجل على الشيطان الذى خنس . . ولكن إلى غير رجعة . .

طـــريق الوصـــول

يقولون :

إن من عبد الله تعالى بالحب وحده . . فهو زنديق .

ومن عبده بالخوف وحده . . فهو حرورى .

ومن عبده بالرجاء وحده . . فهو مرجئ .

ولكن العابد حقا هو :

من عبده سبحانه بالحب . . والخوف . . والرجاء جميعا . وهو معنى قوله تعالى :

[يدعون يبتغون إليه الوسيلة] وهذا هو الحب . . لأن المحب يطمع فى الوصول إلى محبوبه .

ثم :

[يرجون رحمته]
[ويخافون عذابه]

وكذلك كان الصالحون من سلفنا :

كانوا على أوفى ما يكون الرجاء والأمل فى عفْو الله . .

وفى نفس الوقت كان الوجل من عذابه يهز كيانهم . . فلم يدع لهم فى الدنيا لحظة من صفاء وأمان . .

ومن صور أملهم فى كرم الله تعالى ماروى من أن رجلا قال لابن عباس رضى الله عنه :

من يحاسب الناس يوم القيامة ؟

فأجابه ابن عباس :

يحاسبهم ربهم !!

فقال الأعرابى :

نجونا والله . . لأن الكريم إذا حاسب لم يدقق !!

ويذكرنا هذا الأمل الوطيد بمن علق على قوله تعالى :

[ألم يجدك يتيما فآوى] فقال :

«إن الكريم إذا بدأ .. أتم»

ومع هذا فقد كانت قلوبهم ترجف . . خوفا من عذاب الله تعالى . . إلى حد أنهم كانوا يعزلون أنفسهم عن الناس صيانة ليقينهم . حتى إن

أحدهم عوتب فى عزلته تلك فقال :

لست معزولا . .

لأن الله تعالى معى . .

إن أردت أن يناجينى سبحانه . . تلوت كتابه . .

وإن أردت أن أناجيه . . دخلت فى الصلاة . .

إنها العزلة الإيجابية التى يخاف فيها المسلم على دينه أن يسرقه المنحرفون . . وهو لا يشعر!

ولقد عبروا عن متعتهم هذه شعرا . . على لسان أحدهم حين قال :

ليس عندى شىء ألذ من العلم

فلا أبتغى سواه أنيسا

ما تطعمت لذة العيش حتى

صرت للبيت والكتاب جليسا

إنما الذل فى مخاطبة الناس

فدعهم وعش عزيزا رئيسا

وبعد آيات الصيام يقول الحق سبحانه

﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٨) البقرة .

تمهيد

خان بعض أهل الكتاب فى المال عهد كتابهم . فاشتروا به ثمنا قليلا . حتى صارت الرشوة بينهم شرعا متعارفا . . فكانوا ذلك المجتمع المتعاند . . لا المتساند :

يتنافرون . . ولا يتسامحون . .
ويتناقدون . . ولا يسترون

ومن مثل هذا المصير الرعيب . . تشدد الآية الكريمة النكير على هذا المسلك حتى لا يتورط المسلمون فى مثل ما خاض فيه أهل الكتاب . . حماية لهم من مثل ما أصابهم .

موقع الآية مما قبلها

تحدثت الآيات الكريمة قبل ذلك عن فريضة الصيام . . ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتقول للمسلمين الذين فرغوا من أداء فريضة الصيام :

لقد أمرتكم بالصيام عن الحلال . . وهو بين أيديكم . . وتبقى الخطوة التالية وهى : أن تقلعوا عن الحرام الذى يتزين لكم . . فلا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . .

وتلك خطوة تعزز الخطوة الأولى . . عن طريق صقل الإرادة . . بل هى أخف معاناة منها . . لأن الامتناع عن الحرام أقل تحملا من الامتناع عن تناول الحلال . .

لقد بين ص تعالى للناس حقائق الدين :
بما أنزل سبحانه وتعالى من شرائع . .
وبما أودع فيهم من أسباب العلم .

وبما أقام حولهم وفوقهم من دلائل وبراهين . . وكأنما كان ذلك تحذيرا للمكلفين من مخالفة رب كريم رحيم : بين لهم . . فأبى أكثر الناس إلا كفورا . .

وفي طليعة مجالات التحذير : الرشوة . . التى تَزِنُ أقدار الناس على أساس ما يدفعون . . وما يمكرون . . متجاهلة تلك الثروة الحقيقية : ثروة المبادىء . . والتى هى الميزان العدل . فرارا من مثل ما عبر عنه الشاعر :

تقدمتنى أناس كان خطوهمو
وراء خطوى . . لو أمشى على مهل !

من أجل ذلك يجىء قوله تعالى :

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . ﴾

محذرا من الرشوة التى تأكل المواهب الإنسانية . .

وإذا كان الله تعالى قد باعد بين المؤمنين وبين النار بهذا الصوم الواقى من هذا الخطر . . فجدير بالمسلم أن يتلافى هذه الرذيلة . . رذيلة الرشوة .. التى هى انتكاسة يعود بها ليكون قريبا من النار . . التى أنقذه الله تعالى منها بالصيام .

وإذن . . فلا تتعجلوا أخذ المال عن طريق الرشوة . . فسوف يأتيكم حلالا . ثم لقد وحدتنا فريضة الصوم . . وحرام أن تفرقنا الرشوة . ونذكر هنا قوله تعالى فى سورة النساء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ . . . ﴾[1]

لقد ناداهم فى آية النساء بوصف الإيمان . .

وفى آية البقرة . . التى نحن بصدد التعليق عليها . . لم ينادهم بوصف الإيمان . . لأنهم خارجون الآن من صيام رمضان . . خارجون بأرواح شفافة . وقلوب صافية . . وإذن . . فهم أقرب إلى الاستجابة . . فلا يستدعى الموقف تذكيرهم بعهد الإيمان الذى يعيشونه اليوم فعلا . .

لقد نزل القرآن فى رمضان . . والقرآن مرآة الأمة المؤمنة . . وعلى كل مؤمن أن ينظر فى مرآه القرآن ليتحاشى ما يعلق بوجهه من غبار . . بعد هذا الانتصار .

ويعنى ذلك :

أن النهى عن أكل الأموال بالباطل . . إنما هو نهى عن شىء من الدنيا . . بعد أحكام الدين . . ليكون ذلك أعون على الاستجابة والالتزام .

---

١ – النساء ٢٩ .

من فقة الآية الكريمة

يقول تعالى : [لا تأكلوا]

وإذا كان الاعتداء على الأموال مذموما . . على أية صورة كان هذا العدوان . . لكنه سبحانه وتعالى يخص منها «الأكل» بالذات مضيا مع خطة الإسلام فى إعانة المخاطب على الالتزام بما يؤمر به . ويُنهى عنه .

والأكل هنا مرذول فى حس العربى الذى يتصور نفسه فى ضوء الآية الكريمة نهما بَشِما . . فى مشهد لا يرضاه لنفسه . .

فلعل ذلك التخيل أن يفرض عليه الفرار بنفسه من الظلم . . بكل صوره . . بعدما نجحت الآية فى تنفيره من صوره الآكل النهم . . والتى سوف تحمله على الفرار من الاعتداء على أموال الغير . . بكل صور الاعتداء . . بعدما كانت الجريمة الأولى مُرّةَ المذاق . . ولاحظ قوله تعالى [لتأكلوا فريقا] لتتصور المرارة المكثفة . . لأنك بالظلم هنا لا تأكل مالا . . وإنما تأكل رجالا ؟!

وحـدة الأمـة

وفى قوله تعالى [أموالكم]

١ - إشعار بوحدة الأمة . . وتكاملها وتكافلها . وإن المال مالُها جميعا ..

٢ - ثم هى تنشىء فى قلب المسلم إحساسا نظيفا يفرض عليه إحترام

مال الغير . . يعينه على ذلك تصوره أن الحفاظ على مال الغير هو في نفس الوقت . . وبنفس القوة . . حفاظ على مالك أنت . .

ذلك بأن استحلال مال شخص ما . . يترتب عليه استحلال كل مال . . لأنه يعرضه للضياع . . ويجرّئ الغير على استحلال مال المعتدى بعد ذلك .

وكأن الآية الكريمة تقول :

[لا يأكلْ بعضكم مال بعض بالباطل . . لأن ذلك جناية على نفس الآكل . . من حيث هو جناية على الأمة . والحال أنه أَحَدُ أعضائها] .

ويعنى البطلان هنا أخذه بغير حق . أو إنفاقه في غير مشروع . أما الإثم فهو : شهادة الزور . . واليمين الكاذبة .

من عدل الإسلام

لكن جريمة الرشوة لا تتم إلا لمن فعلها قاصدا لها . عالما بآثارها . وأضرارها . .

ولذلك تختم الآية الكريمة بقوله تعالى :

[وأنتم تعلمون]

ذلك بأن الإقدام على القبيح . . قبيح . .

ومع العلم بقبحه . . يكون أقبح . . وصاحبه أحق بالتوبيخ .

من نســـيان المـــوت

وقد تسأل عن العين الحمئة التى تجرى بهذه الخطيئة . . ويجيبك المربون :

إنها آفة نسيان الموت !

وإذا كان العقلاء يقولون :

فَضَحَ الموت الدنيا . . فلم يترك لنا بها فرحا . . فإن المرتشين ينسون الموت . . فعوقبوا فى الدنيا :

بالجرأة على المعاصى
ثم بالفتور فى أداء الطاعات

وقد صدق من قال :
كفى بالموت حارسا . . لكن أين المعتبرون ؟

رأى الشيخ رشيد رضا

يقول الشيخ رضا فى «تفسير المنار» محذرا من عقبة الرشوة . . هذا الداء الوبيل . . يقول :

[وكم من ثروة نَفِدَت . وبيوت خربت . ونفوس أهينت . وجماعة فُرِّقت . .

وما كان ذلك إلا بسبب الخصام . . والإدلاء بالمال إلى الحكام .

ولو تأدب هؤلاء الناس بآداب الكتاب الذى ينتسبون إليه لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم . ويمنع تقاطعهم وعقوقهم . ويحل فيهم التراحم والتلاحم محل التزاحم والتناحر .

وإنك ترى من أذكيائهم من يزعم أنهم عن هدى الدين أغنياء . وقد عَمُوا عمَّا أصابهم بتركه من الإزراء :

فهم بالفسق عنه يتنابزون . ويتحاسدون . ويتنافقون . ويحسبون أنهم على شىء .

ألا إنهم هم الكاذبون .

هموم العيش ومستقبل الأمة

قال صلى :

[إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصوم ولا الحج . . ويكفرها الهم فى طلب المعيشة][1]

وفى رواية : عرق الجبين . . بدل الهم

وللديلمى عن أبى هريرة رفعه :

[إن فى الجنة درجة لا ينالها إلا أصحاب الهموم يعنى : فى طلب

١ – رواه الطبرانى وأبو نعيم عن أبى هريرة مرفوعا .

المعيشة] .

مقصود الحديث

يهدف الحديث الشريف إلى تربية المسلم على فضيلة العزة . . حتى يرتب أموره على ضرورة أن يأكل من عمل يده . . لتظل شخصيته مستقله لا تحمل من أحد منّة .

ذلك بأن الذات المستقله حرة التصرف . . تصنع قرارها بنفسها . ولا ينوب عنها فى ذلك أحد .

فإذا كانت أمة . . فأجدر بها أن توفر لنفسها لقمة الخبز حتى لا يستغلها مستغل حين يعطيها حبة القمح . . ثم يأخذ منها حبة القلب !

معنى الحديث

إذا كان هدف الإنسان الأكبر هو : المغفرة . . والجنة . فإن الوصول إلى هذا الهدف لا يكون عرضا قريبا . . ولا سفرا قاصدا . . وإنما هو الاحتراق فى «مقلاة» المعاناة طلبا للرزق . . وهو المقصود «بالهم»

لكن الهم . . وشغل البال بلقمة العيش لا يكفى وحده فى تحقيق هذا الهدف البعيد .

وإنما الهم بداية الرحلة الطويلة . . والتى تتوج فى النهاية بالكدح . . والعرق . . والدموع . .

وإلا فسوف تظل بعيدا عن هذه الدرجة العالية فى الجنة . . والتى لا تنال إلا بعزائم الرجال .

من فقه الحديث

عندمـا قـال ص «لا تكفرها الصلاة» فربما ظن ظان أن ما سوى الصلاة يمكن أن يكفرها . . فنفى ص ذلك فقال : ولا الصوم . . ولا الحج . . ليبقى الضرب فى مناكب الأرض هو العامل الوحيد فى السير بالمسلم إلى الحصول على الجائزة الكبرى وهى : المغفرة .

وفى القرآن الكريم شاهد يؤكد ذلك :

فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ . . . .عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . ﴾[1]

فقد جعل من هذه الأمور أعذارا . . بسببها يخفف عن المسلم مسئوليته عن قراءة القرآن . .

لكنه سبحانه قدم الضرب فى الأرض طلبا للمعاش على الجهاد الذى أتى به سبحانه فى مرتبة تالية .

---

١ – المزمل : ٢٠

٢ – رواه الطبرانى وأبو نعيم عن أبى هريرة مرفوعا .

يؤكد هذا المعنى قوله ص :

[من بات كالاً من عمل يده . بات مغفورا له][٢]

ويعنى ذلك أن أصحاب الهموم . . هم أصحاب الجنة .

واجـــب الأمـــة

والأمة الإسلامية مخاطبة بهذا الحديث لتفر من التبعية التى تفرغ الأمة من عناصر قوتها واستمرارها .

وقد تهمل أمة فى صناعة «المسمار» فى سلعتها الصادرة فتصدأ السلعة . . وتخسر الأمة . .

ولقد خدعونا – وفى عصور الانحطاط – لما قالوا :

الكفار : يعلمون ظاهرا . . يعنى الدنيا . .

ونحن نعلم العلم الحقيقى وهو : علم الآخرة !

وفاتهم أن يقولوا :

نحن نعلم علم الدنيا . . وعلم الآخرة . . أو هو ما يجب أن يكون :

إن الصلاة لا تقام فى الآخرة . . وإنما تقام فى الدنيا فهى عمل دنيوى :

يحتاج إلى مساحة أرض . . . وإلى ماء . . وقبل ذلك تحتاج إلى جسم قادر عليها . . كما قيل بحق .

والأمة مطالبة بأن توفر لهذا الجسم عناصر حيويته حتى تظل الصلاة شرعة لنا ومنهاجا . . وذلك بالسعى الدوب . . ليكون لها فائض من الغذاء يزيد عن حاجاتها حتى يجد المعوّق ما يسد رمقه .

ألا إنه وطن للعلم . . ولكن وطنه الحقيقى هو : وطن العاملين به !

أمـــا بعـــد

إنه فى ذلك العصر الذى تدعو كل أمة إلى كتابها . . ينبغى أن نستشعر جلال المسئولية . . مسئولية أمتنا عن كرامة الإنسان الذى يجب أن يظل عزيزا بإسلامه . .

هذه العزة التى يؤصلها الحديث الشريف تأصيلا وعاه المربون من علمائنا . ومنهم الإمام الشافعى . . والذى أفتى : بأن من كان لا يستطيع الحج . . ثم عرض عليه آخر نفقات الحج . فعليه أن يعتذر . . فرارا من تحمل منّة من المعطى تخدش معنى العزة فيه . .

ويعنى ذلك أن العزة أغلى من فريضة الحج . أولا تتم إلا بها . وعلى المشتاق إلى أداء الفريضة أن يضرب فى الأرض ليحج من عمل يده . .

شباب صدقوا ما عاهدوا الله عليه

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ

نَحبهُ ومِنهُم مَّن ينتَظِرُ ومَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (٢٣) الأحزاب

تمهيـــد

سأل التلميذ الفتى أستاذه الشيخ :

بين لنا معنى «التوفيق» و «الخذلان» بيانا شافيا .

قال الشيخ :

لن أنقل لك من بطون الكتب . . ولكن خذ مثالا عمليا للتوفيق : إنه الصحابى الأنصارى «عاصم بن ثابت» . .

وخذ «سلافة بنت سعد» نموذجا للخذلان .

وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل :

قال عمر رضى الله عنه :

[كان «عاصم» نذر ألا يمسه مشرك . ولا يمس مشركا أبدا فى حياته .. فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما امتنع فى حياته]

من هو عاصم بن ثابت ؟

كان عاصم رضى الله عنه قائدا عسكريا متعدد المواهب :

يجيد استعمال كافة الأسلحة :

رميا بالسهام . وطعنا بالرماح . وضربا بالسيف : لقد كان من الرجال

الذين يحملون المبادئ . . ثم يحمونها بدمائهم وليس بالهتاف والشعارات ..

وقد وضعت عسكريته موضع التنفيذ فى غزوة بدر . ثم بعد ذلك فى غزوة أحد . . فكان عند حسن الظن به : قائدا رائدا . .

ثم أكد فى «أحد» عبقريته العسكرية حين أبلى بلاء حسنا . . أغاظ الله به أعداء الإسلام .

وكانت شجاعته على ألسنة الرجال حديثا يروى . .

والسمعة الطيبة كما يقولون : عطر الأعمال .

فى أعقاب أحد

وعلى الجبهة العسكرية بعد «أحد» كانت للنساء من قريش ثورة على جثث الشهداء من المسلمين . . عبرن فيها عن الحقد المكتوم :

فبقرن البطون .
وسملن العيون
وصلمن الآذان
وجدعن الأنوف

بل جعلن من آذان الشهداء وأنوفهم قلائد وخلاخيل !!

سلافه بنت سعد

يفعلن ذلك . . إلا واحدة منهن هى : «سلافة بنت سعد» والتى كانت نسبة الحقد فى قلبها الواله أعمق من حقد النساء جميعا . .

ومهما بقرت . . وسلمت . . وصلمت . . وجدعت . . فإن ذلك لن يطفىء وهج الحقد فى فؤادها . .

هذا الحقد الذى يغذيه حزن دفين على من قتلوا من أعزائها : زوجها . . وثلاثة من أولادها !

ولن يهدأ ذلك الأتون المستعر . . إلا بالثأر . . من «عاصم بن ثابت» والذى ترامت الأنباء بأنه هو الذى قتل أحد أبنائها :

لقد أقسمت بأغلظ الإيمان علي قريش أن يمكنها رجالها من عظم رأس «عاصم» لتشرب فيها خمر النصر المزعوم !

ولأنها تعرف سلفا أن أمنيتها بعيدة المنال . . فقد وعدت من يأتيها بعظم رأسه بجائزة ضخمة فخمة . . الأمر الذى حرض بعض الشباب المغرور أن يحاول . . فلعله أن يفوز بالجائزة المنتظرة .

السائرون وراء القمر

ولقد علمت قريش أن قتل عاصم أمنية صعبة المرتقى . . ومن أجل ذلك لجأت إلى الحيلة التى هى بضاعة الضعاف المهازيل :

جاء وفد منتخب من «عضل» و «القارة» . . جاءت الثعالب الماكرة فى مسوح الرهبان . . وفى وداعة الحملان . . وقالوا للرسول ص :

إن فيهم إسلاما . . وهم محتاجون إلى من يزكى فيهم ذلك الإسلام من القراء والفقهاء .

ولله حكمة هو بالغها

استجاب ص لرغبة القوم . فأرسل معهم وفدا من القراء بقيادة «عاصم بن ثابت» رضى الله عنه . وفى الطريق . . بدت خيوط المؤامرة . . حين كشر العدو عن أنيابه . . فأحاط بالقراء . . إرادة إبادتهم .

وقد خدع الوفد كله بالحيلة . . فاستسلموا للماكرين . . إلا واحدا هو : عاصم بن ثابت والذى قال :

[أما أنا : فو الله لا أنزل فى ذمة مشرك . . اللهم أخبر رسولك عنا]

ثم قال ضارعا :

[اللهم إنى حفظت شرعك . ودافعت عن دينك . فاحفظ لحمى وعظمى . ولا تظفر بهما أحدا من أعداء الله] .

فرحة لم تتم

وفور علم قريش بقتله أرسلت تريد رأسه . . حتى تسلمها إلى «سلافة» ومن بعد ذلك الجائزة .

ولكن القدر الأعلى كان قد سبقهم إلى هناك ! :

فقد أرسل الله تعالى أسرابا من «النحل» فكانت حرسا شديدا إلهيا .. فلم تستطع يد أن «تلمسه» .

ثم قيل يا سماء : أمطرى .. فنزل المطر مدرارا .. صار من بعد سيلا حمل الجثة المباركة إلى حيث لا يعرف مكانها أحد .

الحزن الأكبر

ولقد كان ذلك اليوم الحزين مما أضيف إلى هموم «سلافه» التي تعيش اليوم أسوأ أيامها ..

الدرس الأكبر

ويبدو الدرس الأكبر هنا وهو :

أن من صدق الله .. صدقه الله ..

وأن الإيمان عندما تمتد عروقه الذهبية فى أرض النفوس .. يصير المؤمن به ربانيا : يقول للشيء : كن فيكون .. وأن الطموح المؤمن ينبغى ألا يقف بالمسلم عند حد . فلو كان الإيمان بالثريا .. لناله رجال كمثل عاصم بن ثابت .

قال ابن الجوزى :

[ينبغى للعاقل أن ينتهى إلى غاية ما يمكنه :

فلو كان يتصور للآدمى صعود السموات . . لرأيت من أقبح النقائص رضاه بالأرض .

ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد . . لرأيت المقصر فى تحصيلها . . فى الحضيض]

ولقد كانت أمنية «عاصم» بعيدة المنال . . بل كانت تبدو أول الأمر مستحيلة . .

ولكن الله تعالى حقق له أمله . . بعدما أخلص له عمله . .

وهو درس للأمة اليوم . . أن تطيع الله تعالى كما أمرها . . لينجز لها سبحانه ماوعدها . .

ولن يسخر لها جنده المنبثة فى الكون كما سخرها لعاصم رضى الله عنه . . إلا إذا سخرت كل إمكاناتها . . وبذلت كل طاقاتها . . وعندئذ . يجىء نصر الله والفتح .

من خصائص المؤمن

أخرج الحاكم عن عائشة رضى الله عنها :

قلت يا رسول الله :

قول الله تعالى «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة . .»

أهو الرجل يسرق . ويزنى . ويشرب وهو مع ذلك يخاف الله ؟

فقال ص :

لا . . ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق . ومع ذلك يخاف ألا يقبل الله منه .

تمهيـــد

الحديث الشريف يبرز المسلم فى أكمل صوره :

فهو بالصلاة يعمق صلته بربه .

وبالصوم يصلح من أمر أنفسه

وبالتصدق يوثق صلته بمجتمعه

وهو مع ذلك كله خائف . وجل . يرجف فؤاده . . يخشى ألا يقبل ذلك منه !

وهو بهذه الخشية متمم إيمانه عندما يستصغر ما قدم . . جاعلا أمله الوحيد أن يقبل عمله . . بل كان حذرا من رده عليه . على ضخامته . . إلى الحد الذى كان أمله الوحيد أن يغفر الله تعالى له .

فإذا كانت غاية المسلم مزدوجة هى : المغفرة . والجنة . . فإنه يسأل الله تعالى المغفرة . . ولا يجرؤ على سؤاله الجنة لأنه عند نفسه غير أهل لها !!

ومن صور هذه الحساسيه المفرطة المكلفه . . ما كان يلزم المسلم به نفسه . فيما يتعلق بالمال . . بالذات . :

١ – لقد كان يجمعه من حلال . .

٢ – حريصا على توفية مقاديره .

٣ – على أن يكون التصدق به مما يحب .

٤ – متحريا مصارفه الشرعيه . .

٥ – ويكون ذلك كله عملا مع إ يقاف التنفيذ حتى يحافظ على كرامة الفقير وهو يعطيه : فلا يجرح شعوره : حتي ولو بالاشارة !

لا قبل العطاء . . ولا أثناءه . . ولابعده . . كما يقول المرحوم الدكتور دراز . .

فلا ينظر إ ليه شذرا . . كما لا يقول له نكرا .

إن بعض الباذلين – على ضخامة سخائهم – قد يحبطون هذا السخاء بالإحساس بأنهم يعطون . . وإذن فهم الأفضل . .

وعندئذ يلفت البصراء أنظارهم بأنك لو تورطت فى ذلك كان البخل أجدى منك . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ (٢٦٣) البقرة .

كرماء . . أتقياء

[١] – رواه أحمد ج/٣/٣٤٤

٢ – أخرجه الديلمى عن معاذ .

والكريم الحقيقى ليس هو ندى اليد بالعطاء . . وإنما هو الذى يضيف إلي ذلك الحفاظ على كرامة الفقير . . حتى يكونا في العزة سواء . وهو الذى يعطى . ثم وقبل السؤال .. وأثناءه : يتلطف بالآخذ ويثنى عليه .. شاكرا تقبله لعطائه . . الذى بسببه أخذ الفقير مالا . . ورجع هو بالثواب !

مجالات التصدق

ثم إ ن مجالات التصدق متعددة . . تفتح الطريق حتى أمام الفاقدين ليجودوا بما يستطيعون من أعمال قد تبدوفى أعينهم صغيرة وهى عند الله تعالى كبيرة :

يقول صلي : [كل معروف صدقة][١] (الترمزى وحنه)

ويقول : تبسمك فى وجه أخيك صدقه[٢]

١– فالكلمة الطيبة صدقه .
٢ – وهداية الأعمى عبر الطريق .
٣ – وإسماع الأصم .
٤ – وهدى السائل العابر .
٥ – والترجمة إلى العربية للجاهل بها .
٦ – و [أفضل الصدقة حفظ اللسان] .
٧ – إعانة الرجل على دابته .
٨ – إفراغك فى دلو أخيك .

ورجل رزقه اللـه علما . ولم يرزقه مالا . . فهو صادق النيه يقول : لو أن لى مالا . . لعملت فيه بعمل فلان .

فهو بنيته : فأجرهما سواء][1]

فانظر كيف كان مجرد النية سالكا المسلم فى زمرة المتصدقين . . وإن لم يكن له إسهام عملى . .

ويا لعظمة الإسلام : الذى يقرر : أن من تصدق بنار . . فكأنما تصدق بكل ما أنضجت النار . ومن تصدق بملح . . فكأنما تصدق بكل ما أصلح الملح .

جزاء المتصدقين

وفى يوم القيامة . . وعندما تدنو الشمس من الرءوس . . ويغرق الناس فى عرقهم . . فى هذا الوقت العصيب . . تظهر ثمرة الصدقة فى لحظات نحن أحوج ما نكون إليها . . وهو ما يشير إليه الحديث الشريف :

[كل امرىء فى ظل صدقته حتى يقضى بين الناس][2]

من حكمة الإسلام

وإذا كان الإسلام يحض على الصدقة . . منوها بما أعد للمتصدق فى

1 – رواه أحمد فى المسند ج ٣/٣٤٤   ٢ – رواه أحمد وابن حيان .

أخراه . . فإنه حريص على أن يظل المتصدق مرشحا للبذل والعطاء . . فيوصيه بالادخار . . حتى لا يجور على حق عياله . . وحتى يظل عينا ثرة بالخير . . وإلا . . فإن الإعطاء إلى حد السرف . . يحرم المرء من متعة البذل كلما دعا إليه داع . .

وقد يستدين بعض الكرماء ليتبرعوا . . وعندئذ . . فقد تأدى بنا التسرع إلى إصلاح حال الفاقدين . . لكننا أفسدنا بالعجلة أوضاع الواجدين !

إن الاقتصاد في المعيشة من علامة فقه الرجل . . وقد جاء في الأثر :

لا تخيفوا أنفسكم . . فقيل وكيف : فكان الجواب : بالدَّين !

وقد كان ص يستعيذ بالله من الدَّين والهم وقهر الرجال . .

وإن الله تعالى ليبغض أهل بيت ينفقون في ساعة نفقة يوم !!

وفي الحديث :

[أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك] «رواه البخارى»

أجل : إنه خير لك . . حتى لا تستدين . .

وأنت «كمدخر» خير للمجتمع الذى ينجيه ادخارك من مطامع الغير الذي يكون بالدين تابعا له .

أما بعد :

فقد كان لسلفنا الصالح نظرتهم الحكيمة إلى المال . . بل إلى الحياة التى كانوا يتعاملون معها بحذر . . فارين من جاذبيتها وفتنتها . . ومنهم تلك المرأة التى اعتذرت عن قبول «اللبان» قائلة : إنه تعب للأضراس . . وخيبة للحنجرة !

عظمة القرآن

تمـهيـــد

كيف يقارن حق بباطل ؟

الإنجيل والتوراه الموجودان . . محرفان
وهما – كما أنزلا – مفقودان .

أما القرآن . . فهو كما وضعه منزله سبحانه وتعالى :
[ذلك الكتاب لا ريب]

ومع هذا فهناك من يتربص به الدوائر :

١ – مشركون . . ختم الله على قلوبهم .
٢ – منافقون :

أ – مفسدون . . معتقدون أنهم وحدهم مصلحون بدليل أسلوب القصر فى قوله تعالى [إنما نحن مصلحون] .

ب – تصوروا أنهم وحدهم العقلاء . . [ولكنهم لا يعلمون] أنهم السفهاء . . ومن سفههم أنهم :

جـ – يقيمون للضلال أسواقا يقدمون فيها الهدى ثمنا للضلال : [اشتروا الضلالة بالهدى] .

ومن شعائر هذا السوق :

[إنما البيع مثل الربا]

٣ – ثم يهود : [يكتمون الحق] بل . . ويلبسونه بالباطل .

ومع هذا العدوان . . إلا أن القرآن يدخل معهم في حوار بناء :
ولقد هاجم المشركين . .

أما أهل الكتاب :

فقد كان معهم رفيقا . . في مثل قوله تعالى :

[يا بني رسرائيل اذكروا نعمتي] و [أقيموا الصلاة]

صور من عظمة القرآن :

هذا القرآن الكريم : طَرَفه بيد الله تعالى . . فهو كلامه . . وهو صفته . . وطَرَفه في أيدنيا :

أ – هو حروف في المصحف مرسومة .
ب – وحروف في خيالنا مصورة .
جـ – وعلى ألسنتنا أصوات .
د – وفي عقولنا معانٍ .

وهو شيء واحد :

كالمرايا المتعددة :

تظهر الصورة فيها جميعا . . وهى شىء واحد . . وتختلف المرايا . . صقلا . . وجلاء . . أو كما قال علماؤنا .

وكذلك فى دنيا الناس :

تختلف أجهزة استقبال آيات القرآن الكريم . . على قدر فقهها وقبل ذلك على قدر إخلاصها . .

وإذا كان القرآن الكريم ذلك الحبل الممدود . . المانع من السقوط بأمر الله تعالى . . فكيف لا نستغنى به . . مستدبرين كتبا . . ومذاهب أخرى لا تدين به ؟ وكيف نشغل أنفسنا بمقارنته بغيره ؟! :

ألم تر أن السيف يزرى بقدره – إذا قيل هذا السيف أمضى من العصا؟!

بعض الناس يقول :

التقابل بين الثقافات . . وبخاصة فى مجال الاختلاف الدينى والأخلاقى والاجتماعى . . أمر وارد . .

ومعرفة ثقافة الغير :

أ – تحرر عقلى .   ب – وطريق إلى المعرفة .

إن المعرفة قوة تدفع صاحبها لكى يتخذ القرار الصحيح . . والملائم . .

ولكننا نتساءل فيما يتصل بموضوعنا :

المقارنة بين الدعوة القرآنية . . والدعوة فى التوراة والإنجيل . .

فما المقصود بالتوراه والإنجيل ؟

الكتب المحرفة ؟

وإذن . . فكيف نقارن حقا بباطل ؟ بين كلام البشر وكلام خالق القوى والقدر ؟!

أو التوراه والإنجيل كما أنزلا ؟

وأين هما الآن ؟!

وإذن فما فائدة بحث نضيع به وقتا مرصودا لتجلية حقائق القرآن الكريم .. ودعوة الناس إليها . . وهذا وحده لا يكفى .

وقد يقال :

إن المكر الخبيث ما زال سارى المفعول حتى الآن . . وحماية للأغْرار من سمومه لا بد من المقارنة . .

وعلى سبيل المثال :

فى الباحثين من يقول اليوم :

وإذن فالكل واحد . . يتطور . . وما لا نجده فى واحد نجده فى الآخر . . بلا تفريق ؟!

مع أن القرآن الكريم محفوظ بحفظه تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾ (الحجر)

أما بقية الكتب . . فقد وكلها سبحانه وتعالى إلى أهلها . . فحرفوها واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا . .

بل إنهم لم يقولوا كذبا فقط . .

وإنما ضموا إلى القول العمل . . وذلك حين سخروا منها مثل «سلمان رشدى» ممن يحملون أسماء إسلامية . . تمويها .

وإذا قمنا للرد عليهم . . شرعت أقلام الذين صنعوهم . . ليدافعوا عنهم !

مع أن ذلك حقُّنا :

وإذا كان ولا بد من فقيه فى «التدين» يحسن التطبيق . . فنحن فى حاجة إلى فقيه فى «الدين» ليحسن التعامل مع النصوص . . حماية للقرآن الكريم من أن يخوض فيه زائغ . . ولنضمن سلامة حركة الاستنباط فى زمان يتسلح فيه أعداء القرآن بالذكاء والدهاء . . والافتراء .

إلى فقيه فى «الدين» ليحسن التعامل مع النصوص . . حماية للقرآن الكريم من أن يخوض فيه زائغ . . ولنضمن سلامة حركة الاستنباط فى زمان يتسلح فيه أعداء القرآن بالذكاء والدهاء . . والافتراء .

وتلك سمة الحضارة الظالمة اليوم :

والتى تدعم اليهود الأقلية . . ضد أهل البلاد .

وتدعم الأقلية البيضاء . . فى جنوب أفريقيا .

وهى التى أبادت الهنود الحمر . . وهم أهل البلاد .

من بركة القرآن

يقول صلى :

[ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغني بالقرآن][1]

وفى رواية :

[ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن : يجهر به][2]

تمهيد

التقى الرجل العلماني بالرجل القرآني . . فقال له :

أنت فقير . . مسكين !

فقال الرجل القرآني :

كيف أكون فقيرا مسكينا . . وسيدى له ملك السموات والأرض ؟!

فبهت الذى سخر :

---

١ – مسلم ج ٦/٧٨

٢ – نفس المرجع والموضع .

ذلك بأنه مستغن بالقرآن عما سواه : إنه حاضر فى ذهنه . . يعتز به ويفاخر . . يعتصم به ويفىء إليه .

وهذا الثواب الجزيل ، وإن فاز به النبى المتغنى بالقرآن فوزاً أوليا . . إلا أنه شامل لكل من تغنى بهذا القرآن . . بدليل الحديث الشريف والذى رواه مسلم :

[ليس منا من لم يتغن بالقرآن]

إن الجنسية الإسلامية تسحب من هذا الذى لم يملأ القرآن حياته . . ثم لم يصبح به أغنى الناس .

معنى التغنى

فى ضوء كوكبة الأحاديث الواردة فى هذا المعنى تتضح أبعاد هذا التغنى :

١ - إنه : الجهر به :

يعتز به المؤمن : يعلنه من فوق النخلة الطويلة مباهاة به ومغالاة .

وإذا كاثره الماديون بالدنيا . . ضرب بها فى وجوههم ثم مضى لسبيله .

٢ - يزينه بصوته . . وإذا كان هناك من سمار الليالى من يتمنى أن لو كانت جوارحه آذانا حتى تستمتع باللحن العابث فى علب الليل . . فإن حامل القرآن يستمتع به استماعا . . لو علمه الملوك . . لجالدوه عليه بالسيوف !

إنه لا يقرؤه سردا . . وإنما يستروح نسماته :

إنه يرتشفه . . ولا يتجرعه !

٣ - يرق به صوته . . بمزاج مصنوع من أوراق الورد :

تخرج منه الآية عطرا فواحا . . لا مجرد ألفاظ وحروف !

٤ - ثم هو مستغن به عن :

أ - كل الناس

ب - وأحاديث الناس

من ذكرياتى

كان القطار ينهب الأرض نهبا . واقترب منى رجل فجاذبنى أطراف الحديث . . وطال هذا الحديث لما علم الرجل أننى مدرس «بمعهد منوف»

وسعد الرجل بصحبة من سيرعى ولده فى هذا المعهد منذ اليوم . لكن فرحته لم تتم حين رأى الطلاب ممن يرتدون الزى الأزهرى يسلمون على .

فسألنى فى توجس :

أنت مدرس فى «المعهد الإلكترونى» أم فى معهد الأولياء» ؟!

فلما قلت له إننى مدرس بالمعهد الدينى . . مات حبه بالسكتة القلبية !!

وقلت له :

إن الرجل القرآنى . . ليس فوقه أحد إلا الله . .

ويكفينى حب الواحد الأحد . . وإن جفانى كل أحد !!

تنامى الاعتزاز بالقرآن

وقد كان للسنة المطهرة دورها المرموق فى تنمية قيمة الاعتزاز بالقرآن الكريم . . وكيف كان أثقل فى الميزان وأجزل فى الثواب من كل متاع زهرة الحياة الدنيا :

عن عتبة بن عامر قال :

خرج رسول الله ﷺ ونحن فى الصفة فقال :

«أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان – موضع قريب من المدينة – أو إلى العتيق . . فيأتى منه بناقتين كوماوين فى غير إثم . ولا قطع رحم ؟ فقلنا :

يارسول الله . . نحب ذلك قال :

أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد : [فَيعلَمَ . أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل . . خير له من ناقتين] رواه مسلم .

وفى رواية : [. . . ثلاث خَلِفات عظام سمان]
خلفات : حوامل . .
عظام . . وما فى العِظَم من جمال . .
وسمان . . وفوق ذلك فهن أعظم فائدة . .

إن قراءة ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل خير من ذلك كله . .

فلو تصورت قارئا للقرآن على مدى نصف قرن من الزمان لما استطاع خيالك تحديد ماله من ثواب عند الله تعالى . . وهذه الخلفات . . التى تحجب الأفق . . والتى فاز بخير منها . . بسبب ما يحفظ من القرآن . . بل ما يتلوه من القرآن . . بفهم أو بغير فهم !

وكيف يتحول المسجد إلى روضة من رياض الجنان . . بحيث لو حلف الخارج منه : إنه والله آت من الجنة . . لما حنث فى يمينه .

أسعد يوم فى حياة كعب

إننا فى حاجة إلى بعث قيمة «التشجيع» والتى نوه علماؤنا بها . . تحريضا للناشئة على حسن صحبة القرآن . . والسنة المطهرة . دليل ذلك :

قال ﷺ لأبى بن كعب رضى الله عنه :

«إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : «لم يكن الذين كفروا . .»

قال كعب :

وسمانى لك ؟؟ قال : نعم

قال : فبكى

وإذا كان العاشق اليوم يقول لمحبوبته :

لقد سرنى أنى خطرت ببالك . .

فإن سعادة أُبىّ : تُحس . . ولا توصف . . حين يتصور أنه مكلف من قبل الحق تعالى . . بتلاوة القرآن . . على من أنزل عليه القرآن . .

ولقد سمع ص رجلا يقرأ من الليل فقال :

يرحمه الله :

[لقد ذكرنى كذا وكذا آية كنت قد اسقطتها من سورة كذا وكذا][1]

وإذا كانت بعض الدول اليوم ترصد الجوائز الضخمة لمن حفظ القرآن – مشكورة مأجورة – فإن قيمة التشجيع هذا مستمدة من هذه التوجيهات النبوية الراشدة .

وسيظل القرآن الكريم محفوظا بحفظ الله تعالى له . . ثم بما سخر له سبحانه من جنده في الأرض . .

ذلك بأن القرآن الكريم واقع بين الحمد فى أوله :

[الحمد لله رب العالمين]

ثم التعوذ فى آخره :

[قل أعوذ برب الناس]

ويعنى ذلك :

أنه النعمة الباقية . . الخالدة .

هل يطمع الرجل القرآنى فى أن يكون له ذكر فى الدنيا

---

[1] – مسلم ج ٦/٧٥ باب فضائل القرآن .

والجواب فى قوله تعالى :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (٨٥)[١]

إن الذكر الحسن عمر ثان للإنسان . . وهو عطر الأعمال كما يقولون . . وسيرة الرجال مدرسة الأجيال . . ومن الرجال العظام إبراهيم عليه السلام والذى توسل إلى ربه تعالى بهذا الدعاء . . ولقد قالوا :

إن دراسة حياة العظيم وطأُ إلى حسن دراسة نِتاجه . . حتى إن العبارة تصدر عنه . . فتُفَسَّر وَفقا لعقيدته وسيرته .

وفى ضوء سيرة الخليل وعقيدته فسر العلماء هذا الدعاء فقالوا :

[قدم عليه السلام الثناء على الدعاء . . ليقترب بالثناء من عالم الملائكة . . ليمنحه ذلك قوة على التأثير فى العالَم] .

والحكم هو : إدراك الحق . . وهو قوة نظرية «وألحقنى بالصالحين» . . قوة عملية .

فهو يطلب من ربه سبحانه :
أن يهديه : ليعرف الحق لذاته . . والخيرَ . . ليعمل به .
«واجعل لى لسان صدق فى الآخرين»
إنه يطلب الذكر الجميل الباقى . . مابقى الدهر .

---

١ – الشعراء .

وكأنما يقول :

اجعلنى ممدوح كل إنسان . . ومحبوبَ كل قلب .

لكنه ص . . لما طلب سعادة الدنيا . . طلب فى نفس الوقت سعادة الآخرة وذلك قوله تعالى :

[واجعلنى من ورثة جنة النعيم] .

وتأمل من تواضعه أنه يرجو أن يكون من «ورثة » الجنة . . فعلى ضخامة تضحياته . إلا أنه يعتبر نفسه مجرد «وارث» للجنة التى لا يستحقها بعمله . . ولكن . . بفضل الله وكرمه . . وهو يذكر بذلك الرجل الذى كان يطلب فقط مغفرة ربه . . ويستحيى أن يطلب الجنة لأنه لم يعمل لها ما يظنه ثمنا لها .

ذلك بأنها سلعة الله . . وسلعة الله غالية

ولا حظ أنه عليه السلام . . وهو يطلب الذكر الحسن فى الدنيا . . لاحظ أنه لم يركن إليه . . ولكنه يطلب ذلك بينما الآخرة راسخة فى ضميره لا تغيب أبدا . .

فهو وإن كان يطلب الذكر الحسن . . والصيت الذائع في الدنيا بعد مماته . . إلا أن الآخرة هى غاية المراد من رب العباد . .

[وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع]

إن حياته مرصودة أساسا ليوم مَا أطْوله . . ولِموقفٍ . . ماأهوله . . وحاكمٍ . . ما أعدله !

من مقومات الرجولة

يقولون :

إن أجمل صوت في الدنيا . . هو صوت إنسان يمدحك ! وتلك ظاهرة بشرية واكبت حياة الإنسان . . منذ كان هذا الإنسان . .

يقول الشاعر :

يهوى الثناء مبرَز ومقصر

حب الثناء طبيعة الإنسان

ولكن الجمال أقصر عمرا . . بينما الكمال أطول . . وأبعد في الزمان . .
ومن أجل ذلك كان منطق العقلاء :
إذا كان أجملُ صوت . . هو صوت من يمدحك . .
فإن أكمل صوت في الدنيا هو : صوت إنسان ينصحك !
يقومّك . . يبصّرك بعيوبك حتى تتلافاها . .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢٦)[1]

---

١ - الأعراف .

فلا بأس من الزينة عن طريق الرياش . . والتفنن فى اللباس . . لكن ذلك الجمال ينبغى أن يقف عند حد حتى لا يحجب الزينة الباقية وهى : لباس التقوى . .

لباس التقوى الذى لا تقول الآية : فهو خير . . مثلا . . ولكن السياق يؤثر التعبير بقوله تعالى «ذلك» إشارة إلى البعيد . . فالتقوى هناك بعيدة . . بعيدة . . فوق النجوم : هذه النجوم التى تتألق بعيدا . . وبلا ضوضاء كهذا المؤمن الذى يكون ضوءا بلا رعد . . ألا أنه إذا كان المدح يجعلنا «أضخم» من أحجامنا . . فإن النصح يجعلنا أقوى . .

أقوى : بما يترك فينا من وعى نَلمس به عيوبنا . . حتى نتخلص منها . . وقبل آن تدمرنا الأحداث .. فإننا نعيد ترتيب ملكاتنا . . التى «فَلّتها» الاحداث أى بعثرتها . ولكنها لم تدمرها .

المعادلة السهلة

ولقد كان للمربين هنا نصائحهم التي تعين المرء علي تلمس الطريق المستقيم وصولا الي ما يريد من كمال . .

وكان من نصائحهم الذهبية :

لا تفرح بمن يمدحك بحق . .لانه يُورِثُك الغرور . ولاتحزن ممن يذُمّك :

فإنه إذا كان صادقا . .فهو يُبصِّرك بعيبك وإن كان كاذبا . .أضيف إلي

حسابك من حسناته أو ألقى عليه من سيئاتك . وأخطر المادحين . . هؤلاء المنافقون الذين يبالغون فى مدحك . . وبما ليس فيك من الحسنات . وذلك لأن «فاتورة» الحساب غدا ستكون مؤلمة . . وهى :

أن هذا الصنف بالذات : سوف يذمونك غدا . . ولكن بما ليس فيك من العيوب . . جزاء وفاقا . .

وفى النهاية أنت رجل . . فأنت على ما يقول الشاعر :

كُتِبَ القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جر الذيول

والغوانى يغرهن الثناء !
يغرهن . . ثم يجرهن من بعد إلى مالا تحمد عقباه !؟

ومن هنا قيل :

لا تخسر الأعداء الذين يهاجمونك . . ولكن : حذار من الأصدقاء الذين يتملقونك :

لأن الأعداء يستثيرون فيك روح مقاومتهم . . وردهم على أعقابهم خاسرين .

أما الآخرون فيخدِّرونك . . ثم يتركونك فى عرض الطريق . . وقد قالوا فى الأمثال :

من أبكانى . . ثم بكى علىَّ . . خير ممن أضحكنى . . ثم فى النهاية ضحك علىَّ !!

الأعداء سلم الارتقاء

وإذا كان من حكمته تعالى أن ينصر هذا الدين بالرجل الفاجر . . فقد كان من حكمته تعالى أن ينصرك عن طريق عدوك . . ومن حيث لا يحتسب!

وذلك ما يشير إليه أحد الأدباء فى قوله :

[الأعداء : سلم الارتقاء ! وهم أضمن شهادة بخطورتك . وكلما زادت مقاومتهم وتحاملهم . . زادت إحساسا بأهميتك . . فاتعظت بالصائب من نقدهم . . الذى هو كالسم :

يريدونه فتاكا . . ولكنك تأخذه بكميات قليلة . . فيكون لك أعظم المقويات!

ثم تعرض عما بقى . . وكان مصدره الكيد والعجز .

وهل يتهم النسر المحلق فى قصى الآفاق . . بما تتآمر به خنافس الغبراء][1] .

إكسير الرجولة

وتبقى القمة التى ليس وراءها وراء وهى :
استواء المديح والهجاء . . ليبقى الولاء كله للمبادىء . التى تتقاضانا أن نبذل فى سبيلها أرواحنا .

---

١ – الرافعى .

إن بعض الناس كهذه القيثارة المشدودة الأوتار :

يهب عليها النسيم . . فتحدث صوتا . . تتأثر بكل عارض . . ومن ثم تستهلك طاقاتها فى هذا الجو الذى تعيشه :

بين مادح يرفعها إلى السماء . . وقادح يمرغها فى التراب . إن خلاياها لتحترق فى هذه الدوامة . . ثم يجئ أجلهم من قريب . . لأنهم يمثلون شمعة . . تضىء من طرفيها !!

ويبقى الذين لا يلقون للمديح ولا للتجريح بالا . . يمضون على الطريق سائرين :

يبذلون الطاقة . . بحذر

ويستثمرون ملكاتهم . . ولكن بحكمة !!

ثم يصُمُّون أذانهم عن الإطراء . . وعن الهجاء . . فى صبر ومثابرة يصبح بهما ورق التوت حريرا !!

الحب العقلى

يروى الإمام أحمد بسنده :

قال ص :

والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه][1]

وفى مناسبة هذا الحديث يروى عبد الله بن هشام قال :

[كنا مع النبى ص . وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب .

فقال له عمر :

والله يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء . . إلا من نفسى .

فقال النبى ص :

لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك .

فقال له عمر :

فإنه الآن : والله لأنت أحب إلىّ من نفسى .

فقال ص :

[الآن يا عمر][2]

١ - المسند ج ٣٣٦/٤ .

٢ - فتح البارى ج ٥٣٢/١١ رقم ٦٦٣٢

تمـهيـــد

يقول علماؤنا :

أمهات الفضائل هى :

الحب . والعدل . والرحمة .

فلا يكفى الحب . . على أهميته . . ولابد من العدل . . حتى لا يخرجك الهوى من حق أو يدخلك فى باطل .

فإذا انضمت الرحمة إلى الحب والعدل . . اتسعت الدائرة ليرحمك بك حتى من أسأت إليه حين يعاملك بالرحمة الجامعة .

ويبقى الحب تلك العاطفة الرقيقة . . التى تربطك بالله تعالى . . ثم بخلقه سبحانه . . ولو انتفى هذا الحب ما قامت للإسلام دولة . . ولا ارتفعت له راية .

الطريق إلى إنشاء عاطفة الحب

لكى نحظى بحب الآخرين . فلنبدأ بأنفسنا . . ولنحرص على تنمية هذا الحب فى قلوبنا : لقد كان الرجل يقول لأصحابه :

هذا الرجل القادم يحبنى !

فإذا قيل له :

يكفى أن تقول : هذا الرجل أحبه . . لأنه الشىء الذى تعلمه . . والذى تقدر عليه !

ولكنه يقول لهم :

إنه يحبنى . . لأننى أحبه !!

وإذن . . فالبداية من عندنا . وبهذا الفهم العميق يحل الرجل مشكلة اجتماعية :

إن الله تعالى يقول :

﴿ . . . إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٧٠)[1]

فالخير لا يتنزل إلا على القلوب الخيّرة .

وما أكثر الذين يشكون من آخرين لا يحبونهم . . وفى أفراحهم لا يشاركونهم . . وقد يتفوق ولد أحدهم فلا يرى البشر على وجوه الآخرين . . وكان عليهم أن يحاسبوا أنفسهم أوّلا :

هل فرحت أنا لمن زاد على ولدى فى المجموع ؟

وهل حزنت لمن هبط عنه فيه ؟

فإن كان الجواب بالإيجاب . . فمن حقك أن تأسى . .

وإن كانت الأخرى . . فأنت الملوم

١ - الأنفال .

تنمية الحب

ولقد حرص الرسول ص على تنمية هذا الحب . . لتتسع دائرته . . ولتزداد مساحة الود بين الناس . . وهذا هو ص يخبره رجل أنه يحب هذا الرجل الماضى على الطريق . . فيأمره بأن يخبره بأنه يحبه . . لتتنامى بذلك مشاعر الود بين الاثنين ثم تتلاقى العواطف . . حتى نقطف أطايب الثمر وقد رتب مغفرة الذنوب على لقاء المسلم أخاه بوجه باش طلق . .

حب رسول الله ص

والسؤال الآن :

من هو أولى الناس بهذا الحب ؟

إنه رسول الله ص . . لماذا ؟

لأنه يحبنا . . وهو كما قال ربنا تعالى :

﴿ ..... عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٢٨)[١]

لقد أخرجنا الله تعالى به . . من الظلمات إلى النور . . فى الدنيا . أما فى الآخرة :

فقد روى أنه قال لما نزل قوله تعالى : [ولسوف يعطيك ربك فترضى] : لا أرضى وواحد من أمتى فى النار

١ - التوبة .

وهو أولى كذلك بالاحترام والتوقير . . وذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ . . . الآية ﴾[1]

إنه من أنفسنا . . فنحن نحبه لأنه منا . . وهو من أنفَسنا . . فنحن نحبه لمعدنه النفيس !

يتنافسون في حب رسول الله

وقد كان حبه ص أمل الصحابة الأكبر :

ومن أمثلة ذلك :

أن عمر رضى الله عنه ما تمنى الإمارة فى حياته . . إلا مرة واحدة حين قال ص يوما :

لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله .

وطمعا في هذه المنزلة العظمى . . تمنى أن يكون أميرا . . ومرة واحدة فى حياته مادامت الإمارة دليل حبه لله والرسول . .

وفى موقفه مع الرسول ص . . نلاحظ أنه رضى الله عنه يفصح عن حبه للرسول . . وإيثاره له . . على كل شىء . . إلا نفسه . فلما اشترط عليه

---

١ - الحجرات : ٢ .

الصلاة والسلام أن يكون أحب إليه من نفسه . . حقق الشرط . . وفى نفس الموقف . . فأحبه بقلبه . وعقله معا !

ولاننسى كيف أخذ الرسول ص بيده . . وتلك سمة من سمات الزعامة الإلهية التى تتواضع . . بل وتتبسط مع المحكوم . . فتختذل بهذا التبسط المسافة بين القائد والمقود . . الذى أنس بقائده فعبر عن حبه الكبير له بعد ما أسقط الكلفة بينهما . . فتراجعت تلك الرهبة التى قد يصطنعها طلاب الدنيا . . فلا يظفرون بما يحبون !

الحب المتبادل

وقد كان ص يحب أصحابه . . بل وكان يفتح قلبه ليستقبل الأوابين بالحفاوة والنداوة :

[جاء رجل إليه ص – وهو «حرملة» – فقال :

يارسول الله :

الإيمان هنا . . وأشار إلى لسانه

والنفاق هنا . . وأشار إلى قلبه

ولا أذكر الله إلا قليلا

فقال ص :

اللهم أعطه قلبا طاهرا . . ولسانا ذاكرا . .

وارزقنى حبه . . وحب من يحبنى . .

فلما قال الرجل للرسول : آفآتيك بمنافقين أعرفهم . . قال له :

من جاءنا استغفرنا له .

[ولا نهتك على أحد سترا]

ولاحظ دعــوته ص أن يعطى الرجل قلبا طاهرا . . صالحا للود . . والأخوة .

ثم كيف يجعل من حبه للرجل . . ولكل من يحبه . . كيف يعتبر ذلك الحب فى قلبه رزقا يرجو أن يسوقه الله إليه . .

ثم كيف يحرص على أن يظل سليم الصدر . . فلا يقبل نميمة على أحد فاتحا بذلك صدره لكل وافد . . يفتح قلبه . . ليجد قلبه الشريف واديا مقدسا حافلا بأنبل عواطف الإنسان .

الجزاء من جنس العمل

ولأن الرسول ص كان يحب أمته . . وعلى هذا المستوى الرفيع . . فقد كان حبهم له مضرب الأمثال :

أخرج الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية . عن عائشة رضى الله عنها قالت :

جاء رجل إلى النبى ص فقال :

يارسول الله :

إنك لأحب إلىّ من نفسى .

وإنك لأحب إلى من ولدى .

وإنى لأكون فى البيت فأذكرك . . فما أصبر حتى آتى . فأنظر إليك .
وإذا ذكرت موتى وموتك . . عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين.
وإنى إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك .
فلم يرد عليه ص حتى نزل جبريل بهذه الآية :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٦٩)[١]

وتأمل كيف انتصر الرجل على غريزتين :
غريزة حب الذات . . فكان عليه الصلاة والسلام أعز عليه من نفسه . .
ثم غريزة الأبوة . . فكان أحب إليه من ولده .
فكان جديرا بهذا التكريم .

رحمة العالمين

وكان ص جديرا بهذا الحب وهذا التقدير . . لأنه كان رحمة للعالمين :

ومن شواهد ذلك :

أنه بينما كانت قريش تتفنن فى إيذائه ص وأصحابة . . كان ص يتفنن فى إيصال الخير إليهم !

---

١ – النساء .

وكان عليه بمقياس العدل أن يذيقهم نفس الكأس .

ولكنه – وهو الرحمة المهداة – أحس يوما بضائقة اقتصادية تأخذ بخناق قريش . . فاستدعى أبا سفيان وأعطاه خمسمائة دينار . . ليوزعها على فقراء المشركين !!

وهو هو . . ص . . الذى تدخل لدى «ثمامة بن أثال» والذى قرر وقف تصدير القمح إلى قريش . . تدخل لتستمر المعونة سارية المفعول . .

وهكذا . . كل إناء بالذى فيه ينضح . وهكذا يفعل القائد الإنسان .

بين الحب . . والتملق

كانت المرأة الطيبة تداعب زوجها متوددة إليه فتقول :

كل بيت أنت ساكنه

غير محتاج إلى السرج

ومريض أنت عائده

قد أتاه الله بالفـــــرج

وهكذا كانت أمتنا :

بسيطة فى مظهرها . . تلقائية فى تصرفها . . تمدح . . ولكن لا تنافق . . وتقدر العاملين . . لكنها لا تؤلههم . بل كان المسئولون أنفسهم يرفضون المديح الكاذب . . والتملق المفسد . .

وقد يهشون لعاطفة الحب يغمرهم بها محبون مخلصون . . وعندما يحسون بالغرور يناوشهم من بعيد . . يفرون منه فرارهم من المجذوم :

فرض **عمر بن عبد العزيز** لأم الأيتام . وفرض لكل بنت من بناتها فرضا .

وكلما يفرض لواحدة تقول :

الحمد لله .

حتى الرابعة

فلما فرض للخامسة قالت :

الحمد لله !!

فأوقف راتب الخامسة قائلا لها .

مرى بناتك الأربع أن ينفقن على أختهن الخامسة !!

وفر من شَرَك الغرور !!

وأين هذا من التملق الكاذب الخاطىء . . والذى هو سمة من سمات النفاق .

أين من هذه القلوب النقية التى تعبر عن نفسها بهذا المنطق البسيط البليغ معا . . أين منها ما تورط فيه منافقون كذابون . صنعوا بنفاقهم وكذبهم قيادات جوفاء . . غرّهم المديح ففعلوا بأمتهم الأفاعيل .

ومن هؤلاء ذلك الشاعر القائل :

ولا يليق بمن يرنو لمدحكمو

أن ينسج الحمد قبل الإذن بالحمد

إن حبك الشيء يعمى ويصم .

حب الدنيا . . مورط لك فى الشرك الاجتماعى . . ثم شرك العقيدة أيضا. ومنه ما قيل مدحا الملك :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

وإذا كان الحس الأدبى يأنس يقول الشاعر :

ليت الكواكب تدنولى فأنظمها

عقود مدح . . فما أرضى لكم كلمى

فإنه وبنفس القوة يرفض هذا التعصب الأعمى على لسان الشاعر القائل:

إن الحمام بأيكها تشدو :

هل قد علم أو قد عهد . . أو كان :

كالمعتضد أو كالمعتصم . . ملكان ؟!

وقد كفانا «المتنبى» مئونة رفض هذا الغثاء بقوله :

مما يزهدنى فى أرض أندلس   ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

أما بعد فقد قال الله تعالى :

﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1]

يقول المفسرون :

لم يقل تعالى : من يرتد فسوف نعذبه . . أو نحرقه . . وإنما كان البديل : أن يأتى سبحانه بقوم يحبهم ويحبونه . .

إن حب الله متيقن . .

وحب العبد غير متيقن

وأكرم بمؤمن أحب الله ورسوله . . فأحبه لله ورسوله . . ومن حبنا لرسوله: أن نحب آل بيته الكرام . . وإلا . . فمن أحبنى ولم يحب أخى . . فلا خير فيه . . لا لى . . ولا لأخى ؟!

وعن مفهوم ذلك الحب يقول الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه :

[ادعوا لنا بأفعالكم . . قبل أن تدعوا لنا بأقوالكم]

وهكذا فهموا الحب كعاطفة شريفة . .

وكان هذا الفهم الصائب . . والذى يقود إلى العمل الصائب . . أو الحب الصائب . .

---

١ – المائدة : ٥٤

ومتى يكون هذا الحب ؟!

يجيب أحد الفلاسفة المعاصرين :

{إنك تعرف إنك تحب حبا عظيما . . ولكن متى ؟ حين تبدأ فى التصرف ضد مصلحتك . . لمصلحة من تحب !! وفى غياب قيمة التضحية هنا . . يكون الحب دعوى بلا دليل !} .

من الشكل إلى المضمون

عن ابن عمر رضى الله عنه قال :

أجرى النبى ص ما ضُمِّر من الخيل :

من الحفياء إلى ثنية الوداع .

وأجرى مالم يُضمّر من الثنية إلى مسجد بنى زربق .

قال ابن عمر : وكنت فيما أجرى ، «كان قد سابق فيها» قال سفيان بن عبيد الله :

بين الحفياء . . إلى ثنية الوداع : خمسة أميال أو ستة . وبين ثنية الوداع . . إلى مسجد بنى زريق : ميل][1]

وفى رواية :

أن رسول الله ص سابق بين الخيل التى لم تُضمَّر . . . .

تمهيد

كان الفتى النابه يتأهب للسفر إلى دولة أوربية لإعداد رسالة علمية . . فى مجال عملى .

١ – البخارى : كتاب الجهاد . باب السبق بين الخيل {والسبق : مصدر وهو المراد هنا وبالتحريك : الرهن الذى يوضع لذلك} .

وسألنى الفتى : هل يمكن تسمية المسجد باسم من بناه ؟!

وأحسست أنه يعرف الإجابة سلفا عن هذا السؤال . . وكأنما يريد أن يحرجنى !

ومن حسن الحظ أننى تذكرت إجمالا حديثا رواه البخارى - هو ما نعلق عليه الآن - وفيه أن الرسول ص سابق بين الخيل المضمّرة - أى النحيفة «إلى ثنية الوداع» وطول المسافة : ستة أميال تقريبا .

أما فيما يتعلق بغير المضمّرة . . - وهى السِّمان - فقد كانت مسافة السباق ميلا تقريبا .

ووجدتها فرصة ذهبية للفت نظره إلى موضوع رسالته وضرورة الإعداد له بالنظر فى هذا الجانب العملى من الإسلام . . لأنه فضلا عن أنه يثرى بحثه . . فإنه وسيلة عصرية من وسائل الدعوة . . وبخاصة فى ديار لاتؤمن إلا بالمشاهد المحسوس . .

وقد طلبت منه أن يذهب - قبل سفره - إلى متخصص فى الرياضة التى سبق الإسلام كل الأديان والمذاهب إلى تأصيلها . . منطلقا من هذا الحديث الشريف والذى يقرر :

أن مسافة الخيل النحيلة كانت أطول . . بينما كانت مسافة سباق السمينة ميلا تقريبا . . لأن الجرى يتعبها . .

وربما كان ذلك الكشف سببا لدخول أجنبى فى الإسلام لا ينتظر دخوله الإسلام من باب «الأحكام» . . وإنما من باب الحكمة التى تخاطب فيه العقل والحس مع الاحتفاظ بالنصوص إلى أن يحل ضيفا على الإسلام وعندئذ يمكن أن نزوده بتفاصيلها .

ولقد كان هذا الباحث . . الباحث عن قضية لا تهم الرجل الغربى كان ثمرة من ثمرات هذه التربية التى جعلت الطالب عندنا يعرف في علم الطبيعة أضعاف ما كان يعرف «نيوتن» وبدل أن تنشىء هذه المعارف فى عقله روح الطموح والابتكار . . فإنها فقط تزوده بمعلومات معلبة . . جاهزة . . تنتقل من الدرس . . إليه . . إلى دماغه مباشرة . . ثم ومن بعد إلى ورقة الإجابة . . دون أن تعمق فى كيانه ملكة الاختراع .

ما هو التضمير

وسألنى الفتى : وإذن . . فما هو التضمير[1] ؟

قلت له هو :

أن تعلف الخيل حتى تسمن وتقوى . ثم يقلل علفها رويدا . . حتى يصير بقدر القوت .ثم تحبس فى بيت . . وتغطى بالجلال . . حتى تحمى . . وتعرق . . فإذا جف عرقها . . خف لحمها . . ثم قويت على الجرى .

وفى الحديث إشارة إلى جواب سؤالك حين أضيف المسجد إلى من بنوه : من زريق .

---

١ – ضمُر : من باب قعد . وقرب . والمعنى : دقّ لحمه وقلّ

وهناك مـا هـو أعـمق من هذا . . مما يتـصـل ببـحـثك العلمى . . ومما ينسجم كذلك مع البيئات الأجنبية التى تعنيها مثل هذه القضايا وهو :

أن تعذيب الحيوان جائز . . ولكن : بقدر . . وعلى قدر الحاجة . . ثم . . ضرورة إنزال الناس منازلهم . . من حيث غاير ص بين منزلة المضمرة . . وغير المضمرة . ولو خلطهما لأرهق غير المضمر .

وأنه يجـوز الرهان هنا كمـا جاء فى حديث ابن عمر أن رسـول الله : سابق بين الخيل . وراهن ولكن : بشرط أن يكون الرهان من غير المتسابقين . . أى : من خارج الحلبة .

لأنه لو جاز الرهان بين المتسابقين أنفسهم . . لحدث من التنافر والتقاتل ما الله به عليم .

فرصة مواتية

ولقـد أنتـهـزتهـا فرصـة لأقول للطالب – الذى يظن نفسـه داعيـة – على حساب الهندسة التى هى تخصصه الأصلى : قلت له : ومادمت محسوبا على الدعوة فـخيـر لك أن تعمق نظرك قليـلا . . لتجـد نفسك أمام قـضية فجرها ذلك الموقف . . وهى : مدى مشروعية «الترفيه» بصفة خاصة . . أو اللعب الهادف . . والذى قد تفتح به بابا . . يسـتـقـبل الإسـلام عن طريقـة ضيوف جددا ..

إن هناك ما يسمى «بمصارعة الثيران» على ما فى ذلك من وحشية . وفى إمكانك اليوم أن تشجبه بناء على ماعرفت من هذا الحديث الذى قرر ذلك فى أضيق الحدود . .أما فيما يتعلق باللعب :

فأنا الخص لك ما تقوله التربية هنا :

إن الأطفال فى مستهل حياتهم يشغلون أنفسهم صغارا بالأعمال التى سوف يمارسونها كبارا . .

ومن هنا وجب التدخل بحكمة ليحقق اللعب وظيفته وهى :

١ – الترفيه

٢ – وتعويض النشاط .

٣ – التدريب على التخلق بقيم : الشجاعة . والنظام . وقوة الاحتمال . والإنصاف . .

وإذن فهى وسيلة تربوية تستهدف غايات بعيدة عن الملاهى . . والمقاهى !!

وصدق القائل :

فى اللعب : تنمو الشخصية

لأن قاعة التدريس : علم . . وجدية . . وقيود . . قد تصيب الشخصية – لولا اللعب – بالضمور أو الشلل .

وقد شجع الإسلام على هذا النوع الهادف من اللعب . . اللعب البرىء . . الذى يحقق منفعة . . ولا يخدش المروءة .

وعن طريقه ينمو شعور المساواة والأخوة لأن فى الملعب أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء . . وتكافؤ الفرص سواء بين الجميع . . والجائزة : للأدب وليست للنسب !

ومن المفيد أن نحيط علما بتوجيهات الإسلام فى هذا الباب . . وفى زمان يتهم فيه بالجمود والعقود . .

ومما يروى فى هذا المعنى . . ما جاء فى مسند الإمام أحمد : أن الرسول ص قال لطفل حضر فى المسجد :

يا غلام :

[اذهب والعب] !!

ويعني ذلك : أن صحة الطفل النفسية صارت مؤكدة حين عرف طريقه إلى المسجد . . ويبقى أن يستكمل كيانه بالصحة الجسمية في اللعب . . مع رفاق صالحين من أمثاله . . ممن تعلقت قلوبهم بالمساجد . . حتى تظل قيم المسجد حية فى قلبه . . ذلك بأن الطبع – كما يقول الغزالى – يسرق من الطبع . ولقد اتسع أفق الفقهاء[1] عندما أفتوا بجواز اقتناء الدمى الصغيرة . . لتكون للبنات تدريبا على ممارس١ة ما يوكل إليهن من تبعات فى قابل أيامهم .

---

١ – هو الإمام العسقلانى .

أما بعد

وأهم من ذلك كله . . أنك – يا بنى – سوف تسمع من الباحثين فى بلد الاغتراب تشدقا وادعاء ومباهاة بسبق الغرب إلى تقرير هذه الحقائق . . وعندئذ فسوف تضع الأمور فى نصابها . . ويزداد اعتزازك بدينك . . ووطنك . . وسوف يكون عودك حميدا بإذن الله .

لقد كان بعض المربين ينشىءعاطفة حب المسجد فى قلوب الأطفال . . حين يخلى المسجد أحيانا من أثاثه . . ليكون ملعبا للصبيان . . الذى تتنامى فى قلوبهم الغضة عواطف الحب لهذا المكان . . الذى يمارسون فيه رياضتهم المحببة . . لتكون سبيلا إلى طاعة الله عز وجل . .

من صور التكافل الاجتماعى

يقول الحق سبحانه :

﴿ آمنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٧) الحديد

تمهيد

مما يعين الإنسان على الالتزام بما يؤمر به إحساسه بشرعية السلطة الآمرة .

فإذا أيقن بأن من يأمره جدير بهذه الطاعة . . سارع إليها مدفوعا برغبة ملحة فى أن يكون من الطاعة فى قمتها على قدر هذه الثقة بحكمة من يأمره . .

والمسلم هنا يتلقى تكليف الإنفاق . . وهو على يقين جازم بشرعية من يأمره . . بالإنفاق . . فهو سبحانه :

خلق السموات والأرض .

«يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها»

«له ملك السموات والأرض»

«يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل»

وإذن . . فقد توفرت دواعى الطاعة للخالق سبحانه وتعالى . القادر . . العليم . . الملك . . المنعم . .

المنعم بالإسلام . . الذى لا تتم نعمة إلا به . .

وبنعمة العافية . . التى لا تطيب الحياة إلا بها .

وبنعمة الغنى . . التى لا يتم العيش إلا بها .

تهوين الإنفاق

لكن الله تعالى يعلم من عبده أن نفسه «أحضرت الشح» وأن البذل عصىّ . . يصادم غريزة التملك فى كيان الانسان . وأن على جانبى الطريق جواذب . . قد تزيِّن له البخل . . بل والشح . . ومن ثم ومن رحمته تعالى أن أعانه على نداوة الكف بالعطاء . . بهذه الآية الكريمة التى كانت فى بلاغتها وصياغتها خير معوان على تخلق ملكة العطاء فى قلب الإنسان متى كان خطابه حكيما .

وإذا كانت الآية تقول :

إن شرعية السلطة تحملكم على الإيمان . . فينبغى أن يحملكم هذا الإيمان على التعبير عنه : بالعمل . . لا بالقول . . بل بأقوى تعبير وأبلغِه وهو : الإنفاق . . لتتحقق بهذا الإنفاق متعة نفسية . . على حد قو الشاعر :

وما العيش إلا أن تجود بنائل

وإلا أخُ . . يلقاك بالخُلق العالى

ومن الإشارات الدافعة فى الآية الكريمة :

١ – إعادة ذكر الإيمان والانفاق فى قوله تعالى :
{ومالكم لا تؤمنون بالله . . }

ثم فى قوله تعالى :
{وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله}

٢ – ثم إن الأجر المرصود للمنفِق جاء بصيغة «التنكير» . . فهو أجر . . غير مسور بحدّ . . لأنه أجر بلا حدود .

٣ – ثم هو أجر كبير . . مرصود «لكم خاصة» . من دون البشر جميعا والذى وصفه بالكِبرَ . . هو الكبير المتعال . . وياله من أجر لا يَحُدُّه خيال !!

٤ – ثم إنك مستخلف فى هذا المال . مجرد «خازن» . . فأنفق من ملك غيرك . .

أنفق مالا جاءك عن سابق لك فيه . . ولو دام لغيرك لما انتقل إليك ..
(فشأن المال أن ينتقل . ويزول عنا . ويأخذه غيرنا من بعدنا) .
فلا ينبغى البخل به . . فإنه فى الحقيقة ليس لنا . . وإنما نحن فيه بمنزلة الوكلاء : نحفظه لمن يأتى بعدنا .
فلو صرفناه فى الوجوه التى تنفعنا فى المعاد . لكان صوابا}[1]

١ – حاشية الجمل

٥ – ثم إنك مأمور بالانفاق «مما» أنت مستخلف فيه . . يعنى : ببعضه .. لا بكله . .

إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾[١] وليس بلازم أن تنفق أثمن ماتملك . . بل يكفى . . حتى «ولو فِرْسن شاة» . . كما يفهم من التعبير «بما» . .

مسئولية الجماعة المؤمنة :

ولا يراد بالإنفاق هنا فقط هذا الدرهم الذى يجود به «فرد» . على أهمية هذا الإنفاق . . وإنما تتحمل الجماعة مسئولية هذا الإنفاق الذى لا ينحصر فى هذا المعنى الهزيل .

ذلك بأن الأمة كلها مخاطبة بهذا الإنفاق الذى يصير تجديدا لمرافق الأمة . . شكرا لنعمة المال . . والذى نقيِّدها به . . بعيدا عن التفاخر والتعالى . . وقبل أن تفلت هذه النعمة من أيدينا . . ليتحكم غيرنا فينا .

الصحابة يتقبلون الأمر بقبول حسن

كان الصحابة رضوان الله عليهم عند حسن الظن بهم :
فقد كانوا يسارعون فى الخيرات . .
ثم يعلمون بأن غيرهم يسابقهم إليها فكانوا كما وصفهم ربهم سبحانه

١ – محمد : ٣٧

وتعالى يستحثون إليها الخطى حتى يظفروا بها :

(وهم لها سابقون)

وكان ذلك على مستوى الواجدين والفاقدين جميعا .

أما على مستوى الواجدين :

فقد تبرع «أبو الدحداح» رضى الله عنه ببستانه الأثير . . وليس هذا فقط: بل إنه وفور تلَقِّيه الأمر من ربه . . ذهب وأخرج من البستان : زوجته .. وصغاره . . متحملا قسوة الموقف . إيثارا لرضاء لربه سبحانه .

وأما على مستوى الفاقدين :

فقد رُوِىَ عن ابن مسعود رضى الله عنه قوله :

{لما نزلت آية الصدقة . . كنا نُحامل على ظهورنا . .} متفق عليه .

يعنى : كانوا يعملون حَمَّالين فى الأسواق . . لينفق أحدهم على أهله . . ثم يتصدق على غيره . فى جو من التكافل الاجتماعى بدت فيه الأمة كالجسد الواحد .

فى الوقت الذى كان المنافقون يلمزون المطوعين من المؤمنين :

هؤلاء المنافقون الذين لا يرحمون . . ولا يريدون لرحمة ربنا أن تنزل .. ولكن المؤمنين ظلوا باذلين .. فأغاظ الله بهم هؤلاء الحاقدين .

منهج الاصلاح :

يتركز منهج الإصلاح فى أحاديث أربعة :

١ – من حسن اسلام المرء : تركه ما لا يعنيه .

٢ – وقوله ص : لا تغضب .

٣ – وقوله ص : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر : فليقل خيرا . أو ليصمت .

٤ – وقوله ص : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. }

إذا كنا مأمورين بالفرائض التى كلفنا الله تعالى بها . . فمن أجل أن تحقق فينا أهدافها العملية فى سلوكنا . . وهذا هو المنهج العملى للإصلاح . . والمتمثل فى الحكمة من هذه الفرائض . وهو مناط مدح النبى بعظم الخلق الذى هو غاية العبادات جميعا . . وهو نفسه المنهج الذى انحرفت الأمة عنه . . فكان ما كان . . وحتى لا يتسع خط الانحراف . . تجئ هذه الأحاديث الشريفة لتضبط الخطو على سواء الصراط بمجموعة من القيم . . التى تمثل الثوابت فى منهج الاصلاح . .

إن المنحرف . . ليست له مبادئ يحرص عليها . . وليس له عهد وثيق يلتزم به . .

كما وأنه ليست له مشاعر يتذوق بها طعم القيم النبيلة . . وإنما قضيته الدائمة هى :

كم سيأخذ ؟

فإن كان كبيرا . . تقدم . .

وإن كان صغيرا . . تراجع . . انتظارا لفرصة أخرى يبيع فيها ضميره بثمن بخس دراهم معدودة . .

وقد يمنحه الانحراف مالا . . لكنه الزهرة التى تتفتح فى الربيع . . تذبل من بعد فى الخريف . . ثم تدوسها الأقدام ..

إنه خاضع لتقلبات الزمن . .

أما رجل المبادئ : فإنه أبدا كادح إلى ربه . . وهو زهرة لكنها لا تذبل أبدا . . إنه أبدا فى ربيع دائم . . غير قابل للذبول ! . . تظل زهرة الأمل فى صدره . . لا تسقط أبدا على بسيط الأرض حتى تثمر . . ثم لتكون للناس غذاء وشفاء !

لا تغضب :

ويعني ذلك : أن تنجو بنفسك من الأسباب التى تثير فيك الغضب . . لتظل بعيدا عن جاذبيته . . ثم لتكون من بعد سيد قرارك . .

ولتكون فى وجدان الناس من حولك هذا النبع الصافى والذى يروى غلة الظماء .

أقسام الغضب :

والغضب كما يقول البصراء : نوعان :

نوع بركانى . . بلا قانون . . وبلا ضوابط . . وليس له نتائج إلا تحطيم الأعصاب . . قبل تحطيم الضحية !

أما الغضب الإيمانى فهو :

ذلك النهر . . الذى ينطلق . . ولكنه محكوم بشاطئين حتى ينفع ولا يضر . .

إنه غضب لا يغتال العقل . .

ولكن العقل يظل معه سيد الموقف :

يعدّ . . ويهذب . . أو يحذف !

وهو سمة الرجل الذى يملك نفسه . . والذى قال :

ملكت نفسى إذ ملكت طبعى

اليأس حر والرجاء عبد

وهو صنف من أصحاب العزائم الماضية . . المتحررة من إسار الهوى . . والذى قد لا يملك أحدهم شيئا من حطام الدنيا . . ولكنه فى نفس الوقت . . لا يملكه شئ !!

ومنهم **الإمام الحسن** رحمه الله تعالى :

والذى بلغه أن رجلا اغتابه . . فما ذا فعل ؟

لقد نحى مشاعر الغضب جانبا . . لا . . بل أفسح مجال قلبه لمشاعر الرضا والتسامح . .

ثم انتقى أجمل ما يعرف الناس من رطب . . ثم ذهب بنفسه إلى بيت الرجل الذى وقع فى عرضه . . فقدم إليه طبق الرطب ؟

وقبل أن يتساءل الرجل عن حلّ هذه المعادلة الصعبة قال له الحسن :

بلغنى أنك أهديت إلىّ حسناتك . . فأردت أن أكافئك بأطيب ما عندى . . هذه الرطب ؟

ثم ماذا ؟ . . سوف يتساءل الصغار فى الدار وهم يستمتعون بالرطب عن السرّ . . وسوف يعلمونه . . ليكونوا فى خندق من بعد مع الحسن . . ضد أبيهم . . الذى سوف يفرض عليه الموقف المتاب . . فلا يغتاب !

وبمثل هذا الموقف العاتب . . تتراجع مشاعر الغضب . . فى قلوب رجال . . قد لا يسكنون القصور . . ولكنهم أبدا أمل فى الصدور !

بلاغة الصمت

{من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت} متفق عليه .

تمهيد

يحتاج الإنسان إلى عامين . . حتى يتعلم الكلام . . لكنه فى حاجة إلى ستين عاما . . ليتعلم الصمت . . أو كما قالوا : ليتعلم فن الاستماع !

وإذا كانت مادة «الصمت» تعنى : أنه لا كلام أصلا . . وكانت مادة «السكوت» تعنى . . الكف عن الكلام بعد الكلام . . فإن ذلك يؤكد هدف الحديث الشريف الذى يحمل المسلم مسئولية الكلمة التى ينطق بها : إنه يعد كلامه من عمله : فهو بحكم إيمانه بالله واليوم الآخر . . مكلف بأن يعبر عن عقيدته بما ينفع الناس . . وأن يكون على حذر شديد بمواضع أقدامه . . ومواقع كلامه . فإذا تكلم ذكر سمع الله له . وإذا سكت ذكر نظره إليه

وهو منهج الحسن بن على رضى الله عنه . . والذى لخصه فى قوله :

ما ضربت ببصرى . . ولا نطقت بلسانى . . ولا بطشت بيدى . . ولا نهضت على قدمى حتى أنظر :

أعلى طاعة .. أم على معصية ؟

فإن كانت طاعة . . تقدمت . .

وإن كانت معصية . . تأخرت

ولقد كان الحسن بهذا المنهج مثال الرجل «التقدمى» المتحضر . . بينما المنحرفون . . الهجامون على الإثم . . هناك . . فى ذيل القافلة . . إنهم الرجعيون . . مهما أنكروا . . وادعوا !!

بلاغة الإيجاز :

ولقد كانت هناك محاولات جادة من قبل آباء راشدين . . أخذوا أولادهم بفضيلة الإيجاز . . تدريبا لهم . . ليكونوا إلى الصمت أقرب منهم إلى الهذيان :

فهذا شاعر روسى يحكى كيف أن أباه أعطاه مالا ليشترى معطفا ..

لكنه أنفق المال . . ولم يشتر المعطف . . ثم حاول أن يختلق المعاذير . . فى خطبة طويلة بين يدى والده . . يدافع بها عن نفسه . .

فما كان من أبيه إلا أن قال له :

يابنى :

أريد أن أسألك سؤالين :

هل اشتريت معطفا ؟ قال : لا . .

هل أنفقت النقود ؟ قال : نعم

فقال له أبوه :

إذن . . فقد اتضح كل شئ . . فلماذا تفتعل كل هذه الأقاويل ؟!

لقد كان هناك عقلاء . . وكان من عقلهم ما يؤكد أن صوت الإنسان :

رصيد فى بنك الحياة . . وكل كلمة ينطق بها . . مسحوبة من هذا الرصيد . . فلماذا تبدد رصيدا هو أغلى من رصيد الذهب ؟!

بل كان هناك من يقول :

إن الكلمات التى لم أقلها بعد . . هى أغلى من كل الكلمات التى قلتها !!

ثم يعلل ذلك بقوله :

فأنت تحتفظ بالكنوز فى مكان قصىّ . . بعيدا عن السائرين . . وإذن . . فاحتفظ بالثمين من أفكارك فى قلبك !!

فإذا كان هذا الصامت فارسا . . مقاتلا . كانت له أيضا فلسفته القائلة :

{لا تخرج الخنجر من غمده . . دون الحاجة إليه .

ولكن . . إذا أخرجته فاضرب به ..

اضرب . . لكى تقتل الفارس والفرس بطعنة واحدة . وقبل أن تقوم بإخراج الخنجر . . عليك أن تعرف أن حد الخنجر : قاطع وقاتل} .

ويعنى ذلك أن يكون حذرا . . حتى لا يقتل نفسه بسيفه !

وفى خيالى ما قاله «الفضيل» رحمه الله . . مما أعده شرحا مبسطا لهذا الحديث الشريف . قال :

ربما قال رجل لرجل : لا إله إلا الله . . سبحان الله . ومع ذلك أخشى عليه النار ؟!

فلما قيل له : وكيف ذاك ؟ قال :

يُغتاب الرجل بين يديه . . فيقول : لا إله إلا الله سبحان الله . . وليس هذا موضعه . .

وإنما موضع هذا : أن ينصح له فى نفسه ويقول له : اتق الله !!

إن المسلم حارس للفضائل أن تنتهك . . وكل تهاون محسوب عليه . . ولو سترة بالتدين المزيف !!

ورحم الله امرءا . . نطق . . فغنم . .

أو سكت . . فسلِم !!

ورحم الله القائل : إذا جالست العالم أو الجاهل . . فاصمت : فمع الأول . . تزداد علما . . ومع الثانى تزداد حلما .

أمـــا بعـــــد

فالإنسان العاقل . . يهديه عقله إلى المواطن التى يحسن فيها الكلام . . والمواقف التى يجمل فيها الصمت :

وكما أن ترك الحركة عقله : فإن طول الصمت : حبسه . . لا بد من الحركة . . حتى ينشط اللسان . .

ولا بد من الحركة . . حتى لا تصدأ الأعضاء .

ويرحم الله شبابا صمتوا . . ثم تركوا المجال للشيوخ . . فكانوا

بالاستماع أجدر بالانتفاع . .

وإذا كان ولا بد من تقدمهم يوما . . ففى ثلاثة :

إذا سار الجميع ليلا . .

أو خاضوا نهرا . .

أو واجهوا خيلا .

بالحب تطول أعمارنا

قال ص :

[لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]

شىء طبيعى أن نحب الأشياء من حولنا . .

النهر . . الزهر . . الشجر . . والجبال . .

لكن الغريب أن تحبنا هذه الأشياء ؟!

وهذا ما لفت أنظارنا إليه رسولنا ص . عندما قال :

[أحد : جبل : يحبنا . . ونحبه]

وهى لفتة نبوية كريمة تشير إلى اتساع دائرة الحب . . الذى نتبادله مع الأشياء .

فإذا تعلق الأمر بأخيك فى الإسلام . . فإن عاطفة الحب تكون أعمق . . لتنشأ تلك العلاقة الحميمة بين المسلم وأخيه المسلم . . إلى الحد الذى لا يكمل فيه إيمان المسلم . . أى : يظل إيمانه مع إيقاف التنفيذ حتى ينشأ الود بينهما ليكونا قلبا واحدا . . يحب أحدهما للآخر ما يحب لنفسه : نفس ما يحبه لنفسه :

من منصب . أو جاه . أو علم أو مال .

بل إن دائرة هذا الحب لتنداح . . وتتسع حتى تشمل الكافر . الذى يود المسلم لو يهديه الله للإسلام . . كما هداه !

الإسلام يحرص على الحب

والإسلام العظيم دائب التحريض على إنشاء عاطفة الحب تربط بين قلبين يستنزل بلحظة الصفاء هذه شآبيب الرحمة . . جاعلا أوفى نصيب منها لمن كان قلبه أصفى وكان منطقة أحلى . وأساريره أضوأ :

يقول ص :

[إن المسلمين إذا التقيا . . فتصافيا . . وتساءلا . . أنزل الله بهما مائة رحمة :

تسعة وتسعون لأبشّهما . . وأطلقهما . . وأبرهما وأحسنهما مساءلة لأخيه][1]

حب النسب . . وحب السبب

وأولى الناس بحبنا من كانوا وراء وجودنا : آباؤنا وأمهاتنا . .

ثم من حب النسب . . إلى حب السبب ممثلا فى معلمينا . . الذين أتموا بالتربية بناء شخصياتنا . . بل إن من العلماء من قال : لا تفى بحب والديك إلا بالدعاء لهما مع كل صلاة . . بدليل أنه تعالى قرن عبادته بحق الوالدين فى قوله تعالى [واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا] .

---

١ – رواه الطبرانى بإسناد فيه نظر . وفى الترغيب برقم ٤٠٠٨ / ج ٣

الصديق الودود

إن الصديق الودود - كما قيل بحق - زيادة فى العمر . . أجل : زيادة فى العمر . بما يحفظ من أعصابنا . . وما يوفر من أوقات بهجتنا . . ويحمى قلوبنا من دمار محقق . . لو طو يناها على الكره أو الشك . . أو الحقد والحسد .

ذلك بأن الأحقاد . . والخلافات . من شأنها أن تنقص حياتنا من أطرافها ونحن لا ندرى :

إن الحسد محاولة عابثة . . ورمية بائسة أو طائشة . وقد قالوا :
الهَمُّ : نصف الهرم . . وصحة الجسد . . من قلة الحسد . . ومن رضى فله الرضا . . ومن سخط . . فله السخط .

ردم منابع الكراهية

وقد توالت آداب الإسلام داعية إلى ردم منابع الكراهية فحذرت من :
سوء الظن . . والتنابز بالألقاب ومن الغرور . بقدر ما حرضت على كل ما يتنامى به الحب فى قلوبنا . . حين حرضت على :
ستر عورة المسلم . . فمن ستر عورة فكأنما أحيا موءودة .
ثم إن شاء ساء ظنه : فلم يتثبت . . وتتبع العورات ثم تجسس . . فقطع ما أمر الله به أن يوصل .

واقع المسلمين اليوم

مع أن الشر يجمع على : شرور . . إلا أن الأشرار قد يتحدون !

ومع أن الخير : مفرد . . إلا أن أصحابه . . قد يتفرقون !!

فلماذا لا تتآلف الأيدى المتوضئة على البر والتقوى .

إن من شأن الفضيلة أن تجمع الأعفاء . . الصابرين . . الصادقين . . كما تآلف خالد والبراء بن مالك رضى الله عنهما تآلفاً ظهر أثره فى معركة اليمامة :

عندما طعن البراء ثمانون طعنة . . ولزمة خالد يمرِّضه شهرا !!

إن الحب الصغير لا يثبت أمام العواصف . . ولكن الحب الكبير . . نبيل العواطف . . لا يستكين للعواصف !!

من خصائص الجهاد والمجاهدين

أهمية الجهاد

عندما يحمل الجندى المسلم سلاحه . . ماضيا إلى أرض المعركة . . فإنه . . وإن كان يحمى الأمة من أعدائها . . فإنه فى نفس الوقت . . وبنفس القوة يحمى مكاسبه الشخصية من الدمار . . وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1] (٢٤)

تأملات فى الآية الكريمة :

١ – لا يلغى الإسلام ارتباط المسلم عاطفيا بهذا المتاع الدنيوى . . ولكنه فقط يحذر من طغيان : الحب . . على الحرب ! أعنى : يحذر من زيادة حبها على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله .

٢ – فإذا كانت الدنيا أحب . . فإن المحبوب . . والمحب عندئذ على خطر عظيم [فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين]

١ – التوبة : ٢٤

أما إذا كان الجهاد أرجح فى الحب كفة . . فإن الأمة تحمى نفسها من هذا الخطر الماحق . . بما فيها المجاهد نفسه والذى يصون بالجهاد وجوده وأهله وماله . . من الضياع .

أهداف القتال عندنا وعندهم

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . . . . ﴾

وإذن : فالشُّقَّة بعيدة بين الفريقين :

فالمؤمن يقاتل فى سبيل الله . .

إنه كما قال عز وجل «جَاهَدوا فينا»

فليس هو قتالا لمجرد الثأر . . وتغذية مشاعر الانتقام . . كما وأنه ليس للمغنم . . أو المنصب . . أو الجاه . .

ولكنه كما قال خالد رضى الله عنه لحظة تسلمه قرار عزله :

لقد قال لرسول عمر رضى الله عنه :

[أنا لا أقاتل من أجل عمر ولكن من أجل رب عمر] !!

ويعنى ذلك :

أن الهدف هو تأمين الحق والعدل . . وليظل الأمن السابغ لباسَ الجميع :

المؤمنين . . وأعدائهم على سواء . .

لأن مصلحة الدعوة ألا تكون حرب بالمرة :

أولا : حفاظا على دماء الإنسان أن تراق

وثانيا : لتنطلق الدعوة - بلا معوقات - إلى قلوب راغبة فيها متعطشة إليها .

صيانـة الأمـة

يقول سبحانه

[وجاهدوا فى الله حق جهاده هوا جتباكم]

فالجهاد مسئولية الأمة كلها التى تمّحض نيتها لتكون خالصة لوجهه الكريم . . ومادام الحق سبحانه قد اصطفاها للقيام بمهمة تحرير الإنسان . . فأجدر بها أن تجعل من الجهاد شكرا لله تعالى على نعمة هذا الاصطفاء.

ويعنى ذلك : أن الأمة بالجهاد . . تبلغ رشدها : تمتلك بإدارة القتال زمام أمورها . .

ثم لتنتصر على نفسها قبل انتصارها على عدوها . . بما يزوّدها الله تعالى من الحس الخلقى الكاشف . . وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى :
[والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا]

إن ثمرة الجهاد فى الإسلام ليست أشلاء . . وتفاريق . . وخرابا يدع الديار بلاقع .

ولكنها الهداية المفرقة بين الحق والباطل . . هذا الزاد الخلقى المانع من السقوط . . والذى يُحمّل الأمة الإسلامية أمانة الجهاد وذلك بمحاربة أخلاق

أعدائنا قبل أن تتسرب إلينا بالعدوى .

وبخاصة أخلاق اليهود الذين يحاولون تصديرها إلينا لتحطيم إرادة القتال فينا . .

وهو الأمر الذى حذرت منه آية سورة الحديد :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ... ﴾ **الحديد** : ١٦

من صور الهداية

من صور الهداية التى وعد الله تعالى بها المجاهدين : أن المجاهد المسلم لا يجزع فى لحظات اليأس . . ولا يغتر فى مواقف البأس !

وإذا كان الجندى الكافر فارغ القلب من اليقين . . يحسب كل صيحة عليه . . فتطير نفسه شعاعا . .

إذا كان هذا شأن الكافر . . فإن المسلم بمعدنه النفيس لا تظهر قيمته إلا فى معمعان الخطر . .

الخطر الذى قد يكون أسداً هصورا ولكن المؤمن ممتلىء القلب بعظمة خالق الأسد . . فيراه أمامه كلبا !!

لقد كان المسلم يذهب إلى الميدان بنفسه كلها . . بل كان يصحب زوجته وولده .

حتى إن خالدا انتصر على مسيلمة بعد أن هجم عليه فى معركة اليمامة . . وكان فى فسطاطه زوجته «أم تميم» .

أم تميم . . التى تزامل بعلهـا فى رحلة الموت . . ولا تنتظره هناك فى البيت . . ليعود إليها بهدية من بلاد العدو !! بل إن الناس جميعا لو حَذَّروه من خطر محقق لما زاده ذلك إلا ثباتا وعزما على التضحية . . وذلك قوله تعالى :

[الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا . .]

بل وعند رؤية الخطر مباشرة . . يستنفر المجاهدون كل قواهم فإذا هم أكبر من هذا الخطر :

﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (٢٢)[1]

---

١ – الأحزاب : ٢٢

من خصائص المقاتل المسلم

يقول ص :

[والذى نفسى بيده : لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا . . مقبلا غير مدبر . . إلا دخل الجنة]

من إشارات الحديث الشريف :

١ - الجندى المسلم بحكم إيمانه بالله تعالى والدار الآخرة . يخوض المعركة صابرا على مغارم الكفاح . بل مستعليا عليها .

٢ - محتسبا . . لا يطلب على الجهاد «**أجرة**» وإنما أمله هو **الأجر** .

لا يريد وظيفة . . ولا وسامة . . ولا جائزة . . كما وأنه لا يخوضها ادعاء ولا تطاولا .

٣ - مقبلا : غير مدبر :

إنه ثابت . . لا يفر . . يسيل الدم من صدره . . لامن ظهره ؟!

فإذا انتصر . . فبها . . وإن كانت الأخرى . . فيكفيه أنه فعل أقصى ما يستطيعه . . فى أقسى مواقف الحياة . . إنها الفدائية فى منطق الإسلام :

ومع كل ذلك . . فقد كان متواضعا . . وكان إنسانا . . هذا التواضع الذى عبر عنه الحسن البصرى عندما سئل :

هل أنت مؤمن ؟ فقال لسائله :

إن كنت تريد : الذين آمنوا بالله . . فأنا مؤمن . وإن كنت تريد : الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . . فأرجو أن أكون منهم .

وهو تواضع مشتق من السيرة النبوية المطهرة :

ففى فتح مكة . . دخلها ص يلبس عمامة سوداء . . وتكاد جبهته أن تلامس مقدمة بعيره . . تواضعا . . وخشوعا . . إنه الرسول الإنسان :

واجبه . . جزء من طبيعته . . وغايته العظمى . . لا تنفصل عنه أبدا .

ولقد جاء نصر الله . . وذلك هو الجانب العسكرى . .

والفتح . . وذلك هو فتح القلوب . .

فسبح بحمد ربك . . طاعة له . .

واستغفره . . بالإبقاء على هذا النصر يانع الثمرات . . وذلك يكون بالاستغفار الذى هو حراسة النفس حتى لا تتورط فى معصية . . ثم إن الاستغفار من ناحية أخرى :

تواضع . . وهضم للنفس

وخطابه ص بذلك . . لطف بأمته .

ومن ناحية ثالثة فإنه يقلم أظفار الثأر فى أنفسهم . . ذلك الثأر الذى كان يحمل والد القتيل على أن يخبر أهل القاتل قائلا لهم :

إما أن تحيوا لى ولدى . . أو تنظموا نجوم السماء عقدا . . أو تسلّموا إلىّ قومكم جميعا . . لأقتلهم . . ولا أظن أنى أخذت بدلا !!

ولكن الإسلام العظيم . . يحول هذه الطاقة لتكون قوة بانية هادية .

أما بعد

فنحن مطالبون بتخليق «إرادة الجهاد» فى قلوب الجيل الجديد . . جهاد النفس أولا . . سبيلا إلى جهاد عدوٍّ هو أكثر منا مالا وأعز نفرا . . ولكننا مؤهلون للانتصار عليه بما منحنا الإسلام من عقيدة هونّت علينا عدّونا . . حتى قل فى أعيننا .

وإن الله عز وجل . . ناصرنا على هذا الأقل . . شريطة أن ننصره . . كما أمرنا . . لينصرنا سبحانه كما وعدنا .

من مواقف الحوار

يقول الله عز وجل :

﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فيهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها . . ﴾ الآيات من سورة النمل .

تمهيـــد

ليس المدير الذى يتربع على الكرسى الدوار آمرا ناهيا . وإنما هو ذلك الرجل الذى يتعاون مع رجاله على البر والتقوى . . بما يملك من قوة «الإرادة» وحسن «الإدارة»

والذى يشعر بأنه مع رفاقه ركاب سفينة واحدة . . سائرون على درب واحد . . إلى مصير مشترك . . يفرض عليه أن يكون فرطهم . . رائدهم . . إلى ما يحقق مصلحتهم . . محذرا إياهم من كل خطر يتهدد مسيرتهم .

وقصة النملة . . والهدهد . . رسالة موجهة إلى البشر مفادها :

لم سميت النملة نملة ؟

تقول اللغة :

إنما سميت النملة نملة : لتنّملها . . أى : لكثرة حركتها وقلة قرارها .

ومع كثرة حركتها . . وسرعتها . . فإنها لا تتخلى عن حكمتها فى السعى على رزقها :

[لأن النمل إذا التقط الحبة من الحنطة أو الشعير للادخار . . فإنه يقطعها اثنين . . لئلا تنبت . . فيخسرها . . فإن كانت الحبة «كزبرة» قطعها أربع قطع . . لأنها تنبت إذا قطعت قطعتين .

فألهم – بحسه – فرق ما بين الأمرين[1] . ثم إنها تنثر لباب القمح خارج العش فلهذا الحسّ قالت : {لا يحطمنكم ..} حتى لا يفسد العش بنموه وامتداده .

طبيعة النمل

ومع هذه الحركة السريعة التى هى جزء من طبيعة النمل . . فإن حياة هذه المملكة تقوم على محاور ثابتة . . تمكنها من العيش بسلام . . وعلى ضآلة أحجامه . . فى خضم هذا الكون الهائل العريض :

فهناك قيادة :

تنظم المرور . . وتوزع الأدوار بدقة متناهية :

[1] – تفسير الماوردى : ج ٤ / ٢٠٠

وهناك مجموعة تنطلق . . ثم تعود حاملة الزاد . . ومجموعة أخرى تنطلق لتكتشف ما خلفته المجموعة الأولى من حطام . . ثم تعود بما خف حمله عليها . . لتنطلق مجموعة ثالثة حاملة ما عجزت عنه سابقتها .

من دروس الموقف

(١)

لا بد لكل موقع من قيادة تتحمل مسئولية الجماعة . . بما لها من مؤهلات هذه القيادة التى ترشحها لتأخذ موقعها على رأس الطابور . . وفى طليعته.

(٢)

وحين تبحث قضية من قضايا الجماعة . . فإن المتكلم يكون واحدا . . فرارا من التشويش . . وتمكينا لقيمة النظام . الذى نوفر به الجهد والوقت معا . بقدر ما نهيىء الفرصة للقادر على التحدث عن الجماعة التى يبدو مشهدها مهيبا . . بعيدا عن التشويش والتزاحم .

(٣)

ولا بد للقائد من حس بصير بحجم الخطر . . ليكون صادقا مع نفسه . . مسلما – أحيانا – بأنه ضعيف أمام خطر معين . . فإذا كان الخطر قضية فكرية مثلا . . كان لا بد من التسليم فى نهاية المطاف لمن كانت حجته أقوى

(٤)

أهمية التماس الأعذار للطرف الآخر وذلك قولها :

[وهم لا يشعرون]

وكأنها تقول :

فعلى فرض أنهم حطمونا . . فإن ذلك لن يكون تشفيا أو انتقاما . . وإنما : لأنهم لا يشعرون . . فهم معذورن سلفا . وتلك قيمة من القيم التى يتفرد بها المسلم :

فالمسلم : يلتمس الأعذار . . وغيره : يلتمس العثار !

(٥)

[ولقد قالت «وهم لا يشعرون» ولم تقل «يعرفون» أو «يدركون» أو «يعلمون» :

لأنها أرادت الإدراك بالحواس الظاهرة . . وهذا مما يتناسب مع صغر حجم النمل] .

ومن فقه النملة فيما حكاة عنها بالقرآن من قولها «لا يحطمنكم» . . أى لا تكونوا بحيث يحطمكم . . فلو شعَروا . . لم يحطموا . وأن الأنبياء معصومون .. ولا يعتدون حتى على الحيوان . . إلا سهوا .

[فتبسم ضاحكا] : إنه الوقار المانع من الإسفاف :

حجم النمل] .

ومن فقه النملة فيما حكاة عنها بالقرآن من قولها «لا يحطمنكم» . . أي لا تكونوا بحيث يحطمكم . . فلو شعَروا . . لم يحطموا . وأن الأنبياء معصومون .. ولا يعتدون حتى على الحيوان . . إلا سهوا .

[فتبسم ضاحكا] : إنه الوقار المانع من الإسفاف :
فهو لم يقهقه . . لأن القهقهة دليل خفة الأحلام . وسوء الأدب .
وفى السنة أنه كان ص [جلُّ ضَحِكه التبسم] .

(٧)

وما الذى أضحك سليمان عليه السلام منها ؟ :
١ – من شفقتها على قومها . ونصحها .
٢ – ثم من سروره بما أولى عليه السلام من نعمة .
٣ – وأكبر هذه النعم :

أن منطق النملة يعنى أنه مشهور بالتقوى . والحذر من الوقوع فى الظلم . . بدليل ثنائها عليه . . والجنُد على ملة قائدهم .

(٨)

ومن فرط إحساسه بالنعمة . . وقوة رغبته فى استمرارها . . يلح فى الدعاء طالبا عون الله تعالى على شكرها . . تقييدا للنعمة بهذا الشكر . .

وتفقد الطير

وفى سيرته تلك المهيبة . . بلغ أرضا ليس بها ماء . . فطلب الهدهد . . لأنه المختص برؤية الماء تحت الأرض : يراه كما يُرى الماءُ فى الزجاجة .

من دروس الموقف

(١)

تَفَقُّد سليمان عليه السلام للهدهد بالذات مشتق من قاعدة تقول : إنه لا يقدر على إنجاز المهمة إلا من يقدر عليها . . والحكمة قاضية بأن يوَسَّدَ الأمر أهلَه . وتلك مسئولية القيادة التى تفرض على القواد :

اليقظة . . وعدم الغفلة . . حتى عن أصغر محكوم من أفراد الشعب . .

ثم إسنادُ العمل إلى من يحسنه . .

فلما لم يجد الهدهدَ . . استبعد ألا يراه فقال :

[مالى لا أرى الهدهد] إشارة إلى هيمنة القائد الذى لا ينبغى أن يفلت من قبضته محكوم مهما كان موقعه .

(٢)

[لأعذبنه]

وتأكيد التعذيب . . كاشف عن شدة الغضب عليه . . وكان هذا العذاب

هو :

التفريق بينه وبين أليفه . . ليظل سجينا . . مع أضداده من الطيور . . وأضيق ما يكون السجن . . إذا فُرض عليك فيه معاشرة الأضداد . . أضدادك أنت بالذات !

ولم يمض إلا وقت قصير حتى جاء الهدهد . . ليفجر قنبلته :
[أحطتُ بما لم تحط به] !!
ولقد كان الهدهد مغرورا :
١ – لأنه اختار مادة «أحطتُ» . . إشارة إلى استيعابه لأطراف القضية كلها .
٢ – ثم لم يكتف بهذا . . بل كان منه ذلك التحدى فى قوله :
[بما لم تحط به] !!

وإذا كان هناك من يفرح ببعض العلم كما قال تعالى [فرحوا بما عندهم من العلم] إلا أن الهدهد يعى الإحاطة بكل العلم ؟!

(٣)

ولكن واجب الإنسان العاقل أن تتحاقر إمكاناته وتتصاغر . . لأن العلم بحر لا ساحل له . . ملتزما بما يفرضه عليه التواضع من إخبات حمل بعض الصالحين على أن يقول :

اللهم اجعلنى فى عين نفسى صغيرا . . وفى أعين الناس كبيرا . حتى لا

يقع فى حفرة الغرور الذى هو فى حقيقته : انتفاخ . . وليس تناميا . إنه نمو غير طبيعى !

(٤)

والموقف درس لبعض من يدعى العلم اليوم أن يطامنوا من غرورهم ليتأكد لهم أنه : فوق كل ذى علم عليم . . وأن الهدهد قد عرف مالم يَعرفه مالكه : سليمان عليه السلام ! بقدر ما يؤكد للعالم الحقيقى أنه : قد يكون فى المفضول ما ليس فى الفاضل !

(٥)

والموقف دليل يؤكد شرف العلم . وأن على صاحبه أن يكافح به مَنْ هو أعلى حالا منه . . وأن على صاحب العلم أن يغالى به ويزهو فى غير فخر ولا تحامل .

وفى منطق الهدهد من وسائل الدعوة :

ما يمكن أن نسَمَيه إحراج المدعو . . بأن من هو أقل منه شأنا . . سبقه إلى معرفة ربه والإيمان به .

وفى منطق الهدهد شاهد :

لقد كان منطق الهدهد أجرأ :

١ – فقد اعتز بالعلم الذى تفرّد به .

وفى منطق الهدهد من وسائل الدعوة :

ما يمكن أن نسمَيه إحراج المدعو . . بأن من هو أقل منه شأنا . . سبقه إلى معرفة ربه والإيمان به .

وفى منطق الهدهد شاهد :

لقد كان منطق الهدهد أجرأ :

١ – فقد اعتز بالعلم الذى تفرّد به .

٢ – بل عبر عنه بالإحاطة التى هى أوسع دائرة من العلم .

لكن إبراهيم عليه السلام . . كان أكثر أدبا فى خطابه والده :

فقد قال ما حكى القرآن الكريم :

[يا أبت إنى قد جاءنى من العلم . .]

لقد استعمل العلم . .

ثم هو العلم الذى جاءه . . وليس هو من عنده .

يقول العلماء :

وللهدهد عذره : لأنه طير . . ولكنه علم مالم يعلمه البشر . . فكان هذا الاعتزاز الذى تجاوز به حده .

أو لعله أراد أن يكون الرد قويا . . ليسحب سليمان عليه السلام قراره بتعذيبه !!

الداعية
بين الدعاية .. والسخرية

يدخر الإنسان طاقاته لتحقيق رغباته . .

وقد يواجه بخطر لم يكن يدور له على بال . . فماذا يفعل ؟يحاول تحليل الخطر . . وتعليله . . ثم يستنجد بعد هذه الحركة الفكرية بكل أعضائه وملكاته . . كي تحقق التوافق بين إمكاناته . . وهذا الخطر الوافد . .

فإذا نجح في تحقيق هذا الانسجام . . تخطى العقبة . . ثم واصل المسير . . عبر المستقبل .

والداعية إنسان . . وملاقاة الشدائد قدره المحتوم من حيث طبيعة وظيفته التى يخرج بها الناس - بإذن ربهم - من الظلمات إلى النور .

وهو مطالب بالمرونة أحيانا . . حتى يتجاوز حاجز الخطر . . سائرا بالمدعوين إلى ما يريد . . وإلا . . فإن التصلب أمام الأحداث الهاجمة مفضٍ به إلى الفشل :

قال التلميذ لأستاذه يوما :

والداعية إنسان . . وملاقاة الشدائد قدره المحتوم من حيث طبيعة وظيفته التي يخرج بها الناس - بإذن ربهم - من الظلمات إلى النور .

وهو مطالب بالمرونة أحيانا . . حتى يتجاوز حاجز الخطر . . سائرا بالمدعوين إلى ما يريد . . وإلا . . فإن التصلب أمام الأحداث الهاجمة مفضٍ به إلى الفشل :

قال التلميذ لأستاذه يوما :

أوصني . .

فما كان من الأستاذ إلا أن فتح فمه ثم قال لتلميذه :

انظر في فمي : هل أسناني موجودة ؟ فقال التلميذ : لا . . قال : فهل اللسان موجود ؟ قال : نعم . . فقال الأستاذ : لقد تحطمت أسناني . . لأنها صلبة . . وبقي اللسان . . لأنه مرن !!

ومن مظاهر مرونة الداعية . . حين يجعل من «الدعابة» سبيله إلى الاحتفاظ بالمدعوين بين يديه مستمعين . وإذا كانت «النكتة» سلاح الضعيف في مواجهة القوي . والفقير في مواجهة الغني . . فإن الدعابة مدخل إلى قلوب المستمعين . .

إنها نظرة إلى الحياة من جانبها المشرق الوضيء . . ولا يجيد فن الدعابة إلا من كان ذكي العقل . . ألمعيا . . قوي الفراسة . . مدركا طبائع الناس وميولهم !

فقال الشيخ «العنبرى» على الفور :

والله إنى لأمزح . . ولكن لا أقول إلا حقا :

فلو قلت لك الساعة : إن فى دارى عيسى بن مريم أكنت تصدِّقنى ؟!

فقال الرجل : وهذا من ذاك ! . . أى ما زلت تمارس هوايتك فى المزاح !

فقال العنبرى لرجل فى داره : ما اسمك ؟ قال : عيسى قال : وما اسم أمك ؟ قال : مريم !!

أدب المزاح

ولكنه المزاح المنضبط بآداب الإسلام . . الذى لا يعرف الإسفاف . . ولا الابتذال . . وإنما هو : بالكلمة الرامزة . . لا بالهجمة اللامزة ! . . بالجملة التى قد تكون «لاذعة» . . لكنها غير مقذعة ! وإذا قال ناس : نحن نخيل الصخر الجامد رمادا . . بالقوة . . فإن الداعية الحصيف بالدعابة الهادفة .. يجعل من الصخر عذبا فراتا .

وفى مؤتمر اقتصادى عالمى . . فشل المؤتمرون فى اتخاذ حل يخفف من وطأة الأزمة الاقتصادية . . وقال «برناردشو» وكان عضوا بالمؤتمر :

المشكلة تكمن فى سوء التوزيع ؟!

وهى بين أمرين :

رأسى [الخالية من الشعر]

وبين لحيتى [غزيرة الشعر]

ولقد لخصت هذه الدعابة المشكلة برمتها . .

ولكن لا ننسى أن مصدرها إسلامى . . وهو قول علىّ رضى الله عنه :

كلما رأيت منعَّما . . علمت أن هناك حقا مضيَّعا !!

المزاح . . على الطريقة الإسلامية

قال الفضيل بن عياض «لوكيع» لما قدم عليه بمكة . . قال له معاتبا : ما هذا السمن . . يا راهب العراق ؟!

فقال وكيع : فرحا بالإسلام !!

مغزى الجواب

يذكرنا «وكيع» بأن الصحة . . ليست من الأكل والشرب . . كما يظن البشمون بألوان الترف .

ولكنها نهر من الأنس . . يتدفق فى العروق . .

ثم إنه يذكر «الفضيل» بأجل نعمة قد ننساها فى معترك العيش . وهى : نعمة الإسلام !

وفى خيالى الآن . . ما كان يمكن أن يحدث اليوم لو ووجه إنسان بما ووجه به وكيع ! . . إذن لكان الرد المتوقع هو :

أنا سمين . . نعم . . ولكن سمنى ليس من مال أبيك . . ثم تقوم معركة : نعرف متى بدأت . . ولكننا لا ندرى . . متى تنتهى !!

لقد كان المسلم يتقبل الدعابة . . على مرارتها أحيانا . . يتقبلها بصدر رحب . . لأنه كان يرحب بها !

الأساس الشرعى

ولكن ما هو الأساس الشرعى للدعابة كسلاح من أسلحة الدعوة والتربية:

لقد كان ﷺ . . يقبل المزاح الحق ويهش له : سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها :

كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى بيته ؟

قالت :

«كان ألين الناس . وكان رجلا من رجالكم . . إلا أنه كان ضحاكا بساما] . .

أجل : إنه بشر من البشر : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . ثم يستجيب للدعابة الهادفة .

ومن ناحية أخرى كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا . . ولكن له مع الصحابى الفكه : «نعيمان بن عمرو» ضحكات وتعليقات .

وقد أفسح الكاتبون فى كتاباتهم بناء على هذا مجالا للحديث عن المزاح مركزين على ضرورة ألا يتجاوز حدوده :

قال الجاحظ :

[للمزاح موضع . وله مقدار . . متى جاوزهما أحد . أو قصر عنهما أحد صار الفاضل خطلا . . والتقصير نقصا . . فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر . ومتى أريد بالمزاح النفع . وبالضحك : الشيء الذى جعل له الضحك .. صار المزاح جدا . . والضحك وقارا] .

المزاح فى تراثنا

ومن ثمرات المزاح ما روى :

من أن «أبو نواس» لما غضب عليه «المأمون» لذنب ارتكبه . ثم قرر حبسه . . لجأ أبو نواس إلى الدعابة سبيلا إلى الإفراج عنه :

قال لغلام معه في السجن – وكان بليدا :

أتريد أن أحسن إليك . . فأحمل الخليفة على أن يخصك بجائزة ؟ فلما وافق الغلام . قال له أبو نواس :

اذهب إلى الحلاق . ودعه يحلق شعر رأسك جيدا ثم ائتنى لأكمل معك القصة .

فلما فعل الغلام ما أمر به وعاد إلى «أبو نواس» قال له :

إذا بلغت القصر فَصِح قائلا :

نصيحة لأمير المؤمنين . . حتى إذا دنوت من الخليفة دعه يقرأ ما كتبته على رأسك من رجاء إكرامك !!

وكانت هذه الأبيات :

بك أستجير من الردى

متعوذا من سوء باسك

وحياة رأسك لا أعود

. . لمثلها . . وحياة

راسك

من ذا يكون أبو نواسك

. . إن قتلت أبا نواسك !

ثم لم يكتف أبونواس بهذا . . وإنما كتب تحت هذه الأبيات :

«إذا قرأ أمير المؤمنين الرقعة . . فليمزقها» . فضحك المأمون . . ثم أطلق سراحه» .

وهكذا : تكون الفكاهة . . ثمرة العقل . . كما أن «الفاكهة» ثمرة الحقل !

من المزاح . . إلى السخرية :

المفروض أن نشغل القلب والعقل بما يفيد . . حتى لا تحترق أعصابنا . ثم لنحتفظ بكرات الدم جيشا يقاوم الغزو الخارجي . .

وقد تكون الدعابة بعض وسائلنا . . كما أسلفنا . .

لكن الموقف قد يكون ساخنا . . حين نواجه بماكر مخادع يريد النيل منا

. . وإذن . . فلا بد من مقاومته بسلاح السخرية . .

ولكن ما هى السخرية أولا :

قالوا [أن تقول قولا . وأنت تقصد ضده . وقد يكون ذلك واضحا كل الوضوح . وقد يكون باطنا خفيا . لا يدركه إلا أهل المزاج الخاص .

أما من حيث المصدر :

فقد تكون السخرية أسلوبا تلبسه فكرة مرحة مسرورة وقد يكون معطفا تتدفأفيه بهجة روحية صافية .

وقد يكون قالبا يفرغ فيه رأى جليل . . أو صورة طريفة أو حس عميق من أحاسيس النفس .

وقد يكون صيغة من صيغ الغضب والنفور .

وهو بذلك كله : تعبير أصيل عن خواطر الفنان الساخر وما يثور فى نفسه من عواطف وأفكار . . حين يصطدم بالمجتمع وأحواله . والناس وأشيائهم] .

فى مجال التطبيق

وقد كان للسخرية مجالها بين البشر . . لكنها كانت لاذعة أحيانا . . ومهذبة أحيانا . .

ومن النوع الأول قول الشاعر :

سقط الثقيل من السفينة فى الدجى فبكى عليه رفاقه وترحموا

حتى إذا طلع الصباح أتت به نحو السفينة موجة تتقـــدم

قالت : خذوه كما أتانى سالما لم أبتلعه . . لأنه لا يُهضم !!

وقد سرت عدوى هجاء الثقلاء . . إلى الفقهاء الذين تظرف أحدهم فقال :

فى الصلاة : إذا كان الثقيل عن يسارك . . تكفيك تسليمة واحدة !!

السخرية . . على شرط الإسلام

ولا بأس على المدرس . . والداعية . . والمربى أن تكون له سخرية من تصرف ما . . شريطة ألا تميت فى الآخر رغبته فى المعرفة

قال أحد أبناء أمراء الأندلس «لأبى الوليد الباجى» :

هل قرأت أدب النفس لأفلاطون ؟

فقال له :

قرأت أدب النفس لمحمد عبد الله ص .

ورد الأستاذ ،إن كان ساخرا . . لكنه رسالة موجهة إلى المفتونين بثقافة الغير . . تؤكد لهم أن فى الإسلام غنية عما سواه . . وهو الأصل الأصيل فى الحديث عن النفس الإنسانية . . لكن هذا المعنى لم يجىء فى أسلوب حاد محرج . . لكنه يوقظ العقل . . ولا يشل حركته .

وقد عاد التلميذ بالدرس المفيد راضيا مقتنعا .

وأين هذا من موقف «برتراندراسل» . عبر هذا الموقف المشحون بالانفصال وتبادل التهم مما يفسد العلاقة بين الطرفين :

قرأت امرأة بعض كتب هذا الفيلسوف . ثم قالت له يوما :

لم أفهم من كتابك هذا شيئا!

فقال لها :

وماذا أفعل ؟!

أعطيتك كتابا . . لأن هذه هى حرفتى . ولكنى لا أستطيع أن أعطيك عقلا . . فهذا فوق وسعى !! وانسحبت المرأة مهزومة . . كما انسحبت أخت لها من قبل إذا قالت لواحد من الأدباء :

لم لا تقول ما يفهم . . فأجابها :

ولم لا تفهمين ما يقال ؟!

موقف الداعية :

وقد يشتد الداعية أو يحتد فى سخريته . . إذا كان الطرف الآخر ماكرا . . يستهدف أصل العقيدة . . لكنه مع ذلك لا يقول إلا حقا :

فى مجلس من مجالس الحوار . قال الشيخ للراهب :

كيف حال بناتك ؟ فقال له الراهب : أنت تعلم أننا لا نتزوج . فقال الشيخ تنفون عن أنفسكم الزوجة . . ثم تجعلونها لله سبحانه وتعالى . . فقال الراهب منفعلا :

كيف حديث الإفك ؟!

فكان رد الشيخ : لو كان هناك امرأتان متهمتان . . في شارع ما . . فحملت أحدهما . . ولم تحمل الأخرى . . فعلى من تصدق التهمة ؟!

[يقصد مريم البتول . وهو لا يريد التعريض بها وإنما مجرد إحراجه] .

وعندئذ سكت الرهب . . بل وانسحب من ساحة الحوار .

سخرية الرفاق

لكن سخرية الرفاق تكون أقل قسوة . . وأقرب ما تكون إلى المداعبة والمزاح :

قال الأمير للفضيل بن عياض :

ما أزهدك ! فقال الفضيل :

هناك من هو أزهد منى . فقال الأمير : من هو ؟ قال أنت أيها الأمير :

فقال الأمير : وكيف ؟ قال :

لأننى أزهد فى الدنيا . . وهى صغيرة

وأنت تزهد فى الآخرة . . وهى كبيرة !

فأنت إذن أزهد منى !!

لكنها قد ترتفع حرارتها إذا تطلب الموقف ذلك :

دخل «أبو مسلم الخولانى» التابعى الجليل . . دخل على جماعة فوجدهم يتحدثون فى المسجد فقال لهم :

مثلى ومثلكم :

كمثل رجل نزل عليه مطر . . فأوى إلى بيت ليحيمه . . فوجده بلا سقف!

وأحيانا يكون السائل ساذجاً . . فتكفيه السخرية العابرة :

سأل رجل الشعبى عن المسح على اللحية . فقال له :

خللها بأصابعك . .

فقال السائل : أخاف ألا تبلها !

فأجابه :

إن خفت . . فانقعها فى الماء طول الليل !!

وقد سئل يوما :

هل يجوز للمحرم أن يحك بدنه ؟

فقال : نعم .

فلما قال السائل : مقدار كم ؟ أجابه : حتى يبدو العظم !!

من سخريات الشعرواى

فى محاضرة له بمسجد السيدة زينب بالقاهرة قاطعه مستمع قائلا :

السِتُّ تأمرك أن تعطينى سبعة جنيهات . . فقال الشيخ : المفروض أنها تأمر المعطى . . وليس الآخذ .

ثم إن هذا خطأ . . فمن أين عرفت أن معى سبعة جنيهات ؟!!

ومن الجائز أن يكون ما معى أقل !!

وبعـــــد

فقد حجزت زوجة الفلاح – يوم الحرث – بعض القمح لتعمل منه «بليلة» لأحد أبنائها . وحجزته من نصيب ابنها الآخر . .

فلما زاد المأخوذ منه عن أخيه «إردبا» تساءلت عن السر فقال لها زوجها : هذا نظير ما صنعت من «البليلة» !!

وبعد بعد :

فما أعظم سخرية المهزوم ممن انتصر عليه . . وذلك قولهم :
إذا ابتسم المهزوم . . فَقَدَ المنتصر لذة النصر!

وفي تاريخنا ما يؤكد صحة ذلك :
[رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة]
إنه الضعف الشريف . . يتحدى القوة السافلة . . ولقد كان هتاف بلال رضي الله عنه هو :
أحد . . أحد . .

ولقد كان هذا الهتاف أنكى في حس سيده «أمية» من كل سلاح . . ذلك بأنها رسالة تقول للمنتصر :

قد أكون في مرحلة ما «مستضعفا» لكنني أبدا لن أكون ضعيفا !!

الإمام الزاهد . . الباكي . . المرح !

يذكرون من خلال الإمام «عز الدين بن جماعة» أنه كان عابدا زاهدا بكاء . .

ومع هذا فقد كانت فيه دعابة :

يحسن النكت . والتعليق الساخر على بعض المواقف : وكان يمشى بين العوام . ويقف على حلقات المتلاعبين بالسيوف !!

وما أردت بذلك أن يتبذل الداعية حتى تسقط هيبته . . وتتجرأ عليه العامة . .

ولكنى أردت بيان أن هذا العالم مع زهده إلا أنه كان يعيش الحياة بالطول وبالعرض . . وربما كان الجانب الضاحك من حياته معينا له على مهمة الدعوة فى زمان ثقلت فيه الموعظة على قلوب الناس . . وصار الواعظ شخصية غير مرغوب فيها . . ولا بأس أن ينزل إلى مستوى الناس أحيانا على الأقل . ثم يترقى بهم إلى الأفق العالى . .

وقد كان المرحوم الشيخ محمد الغزالى يضحك أحيانا وهو يقول مبتسما: إنه امرؤ فيه دعابه !!

تناسق الأكوان

يقول عز وجل :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (٢٠) الذاريات
﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٤٩) القمر
﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ (٢٣) المرسلات
﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (٢) الفرقان
﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٨٨) النمل
﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (٣) الأعلى
﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ (١٠) فصلت
﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (٣) الطلاق
﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (١٩) الحجر

مقصود الآيات

تتضافر هذه الآيات الكريمة لبيان ما يلي :

١ – أنه تعالى هو الخالق . .

٢ – وخالق كل شيء . .

٣ – وخالقه بقَدَر وميزان . . فى نفس اللحظة التى خلقه فيها . . كما تفيد «باء» الملابسه فى قوله تعالى :

[. . بقدر . .]

فالله سبحانه وتعالى هو خالق «كل» شىء :

والشمول هنا مفهوم من «كل» :

إنه تعالى خالق كل شىء :

صغير وكبير . . ناطق وصامت . . ساكن ومتحرك . . كل شىء :

ماديا كان . . أو معنويا .

فى مملكة الحيوان . . والطير . . والحشرات . . والإنسان : قدّر حجمه . . وشكله . . ونوعه . . وكثافته . . ووظيفته التى سوف يؤديها . .

إن كل شىء مخلوق بحساب . . ولحكمة . . فهو موزون . . على قدر وظيفته .

فى مملكة الحيوان

ترى فى خلق الجمال على هيئتها معلما من معالم هذه الحكمة . . التى قضت أن يكون خلق الجمال هكذا . . سفينة للصحراء . . بخفافها التى لا تغوص فى الرمال . . وبسنامها . . وقدرتها على اختزان الماء والغذاء زمنا طويلا . . عبر صحراء ، واسعة شاسعة . . قد يعز فيها الماء والغذاء ومن حكمه الله تعالى أن يزود «الوحوش» بأنياب وعضلات تمكنه من الافتراس .

. ثم بمعدة مهيأة لهضم العظام !!

فى مملكة الطيور

الطيور الجوارح . . كالصقور . . قليلة العدد . . لأنها قليلة البيض . . ولذلك كانت طويلة الأعمار . . وتعيش فى مواطن محددة . . ولو كانت كثيرة كالفراخ . . لأفنت ضعاف الطيور . . والتى لها مهمة لا تقل أهمية عن دور الصقور الجارحة !

قال الشاعر :

بغاث الطير أكثرها فراخا

وأم الصقر مقلاتٌ نَزُور

وفى دنيا الحشرات والسابحات

الذباب يلد بالملايين . . لأن الذبابة لا تعيش أكثر من أسبوعين . .

ولو عاشت أطول من ذلك . . لغطت سطح الكرة الأرضية وأضرت بالإنسان . .

والجراثيم : تتكاثر بالملايين . . لكن عوامل إبادتها كثيرة : من البرد . . والمطر . . والضوء . . وما استحدث الإنسان . . وقل مثل ذلك فى السمك . . وكثرة ما يبيض . . وقلة ما يعيش . .

فى مملكة الإنسان :

يقول عز وجل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٨) الحج

وهكذا . . كل شىء : مما ندركه . . ومالا ندركه . . ساجد عابد لله تعالى على نحو لا نفقهه . .

[ولكن لا تفقهون تسبيحهم]

إلا الإنسان . . الذى كان نشازا فى هذه المنظومة الكونية المسبحة الخاضعة والتى لا تحيد قيد أنملة عن خط سيرها المرسوم . . أجل إلا الإنسان :

فمنه عابد . . ومنه جاحد . .

وإن تعجب فعجب أن يكون الجماد وفيا . . ويبقى الإنسان عصيا !

وصدق الله العظيم :

[كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا . .]

إن الأرض الجامدة . . لم تخل بوظيفتها . .
ولكن القلوب الهامدة . . بقيت على جحودها !!

ومن أجل ذلك ينعى الحق تعالى على الإنسان كنوده وجحوده . . وإخلاله بواجبه الإنسانى . . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) الصف

لقد تضخم جانب القول . . على حساب جانب الفعل . .
وإذا كان من السنة أن نقول . . فإن من صميمها أن نفعل !
وإذا كانت نصيحة الحكام واجبة . . فأوجب منها أن ننصح نفوسنا أولا ..

وإذا كان الحق تعالى قد تكفل بالتوازن الكونى . . وهو ما لا نملكه ! فلنحاول أن نحقق التوازن الإنسانى . . . وهو الشئ الذى نملكه .

تكامل الأجيال

ويبقى بعد ذلك أن تتوحد الطاقات . . أن تتساند . . ولا تتعاند . .
إن المتحمس يدافع عن هجمة الحماس بقول الشاعر :

السيف أصدق إنباء من الكتب

فى حده الحد بين الجد واللعب . .

بينما الشيخ الوقور يقول :

الرأى قبل شجاعة الشجعان　　　هو أول . . ولها المحل الثانى !!

ألا وإن كل جيل صادق مع نفسه . . معبر بهذا الصدق عما يدور فيها .. ويبقى أن يلتقى الفريقان على كلمة سواء . . أن يتوازنا فى تكامل . . يلتقى فيه السالب بالموجب . . فإذا الحياة ضياء . . ورخاء .

فى مملكة النبات

[الذى قدر فهدى]

ربما قيل لمريض يائس :

وعسى أن تكرهوا . . فيضيق صدره . . ولكى تساق الآية مساقها . .

نذكر هذه العجيبة مع الذاكرين الذين قرروا :

أن النبات البقولى .

وميكروب الريزوبيام :

عقدا صفقه تجارية . . يتعاونان فيها على البر والتقوى :

إنها صفقة :

أ – لا يقتصر نفعها عليهما بل تعم .

ب – التربة الزراعية

جـ – الإنسان

د – الحيوان .

كيف تتم الصفقة

منذ ملايين السنين . . وقبل ميلاد الإنسان :

١ – يحصد النبات البقولي . . فيزداد النبات المزروع مكانه خصوبة يعطيها له النبات البقولي على عكس المفهوم من أن نسبة الخصوبة تقل بعد حصاد الزرع الذى امتص جلها

٢ – الأرض مملوءة ببلايين : الميكروبات . . الفطريات . . والفيروسات . . وبعضها بل أكثرها يضر النبات فيذبل أو يموت .

٣ – إلا ميكروب «الريزبيام» صديق النبات البقولي .

٤ – ليس هنا سمع ولا بصر . . يكتشف الصديق من بلايين الميكروبات ولكن :

أ – يفرز الجذر البقولي مادة كيماوية توقظه ليتجه إليها ويتكاثر حول الجذور دون إذن بالدخول !

ب – فإذا دق بابها لا تفتح له إلا بمفتاح هو :

مادة كيماوية خاصة يفرزها الميكروب .

ومادة كيماوية خاصة يفرزها الجذور .

فإذا تفاعلا . . أعطى جواز المرور وتحت الصفقة الرابحة .

بعد الدخول

تتكاثر الميكروبات لتصبح بلايين البلايين . . وتتكون [عقد] بكترية . .

أ – الميكروب لا يتكاثر فى التربة الزراعية . . لأنه لا يستطيع تكوين المواد السكرية .

ب – لكن النبات الأخضر يستطيع ذلك عن طريق التمثيل الضوئى فيأخذ الميكروب من السكر نصيبا . . وبها يتكاثر حين يحول السكر إلى طاقة تدير المصنع ليعمل ويتحرك .

تبـــــادل

لكن الميكروب ليس أنانيا ولكنه يمنح الجذور :

مددا من سماد نيتروجينى يحتاجه النبات البقولى جدا [كل ميكروب داخل العقدة البمترية بصطياد غاز النتروجين الحامل من الهواء ثم يدخله فى سلسلة من عمليات كيميائية معقدة .

النبات البقولى :

يتحول إلى :

الأحماض الأمينية . . ومنها تكون البروتينات يعطي الإنسان منها ليختزنها النبات في حبوبه وثماره .

وإذن فغنى البقول بالبروتينات راجع إلى هذه التعاون وعلى البر بينهم ؟!

بالإضافة إلى ذلك :

تبقى الجذور متحللة في الحقل فتستفيد الأرض الزراعية من القايا :

[من ٤٠ : ٢٠٠ كيلو جرام سماد سقويا]

وإذن :

فالارض تستفيد بملايين الأطنان من الأسمدة .

وبالمجان !!

لما كانت حاجة البشرية للسماد ونزداد فقد حاول العلماء فصل العقد وأمدوها فيما لذ وطاب من الطعام بعيدا عن الجذور ففشلوا لأن العلاقة وثيقة بين الميكروب والبقول ويوم نفك الطلاسم لنستفيد !

إنها دروس في التكافل والتعاون . والعطاء . . توفينا من الحشرات . . تحت التراب .

فهل يعتبر الإنسان وهو يعيش فوق التراب ليكون مثلها وفيا . . معطاء ؟

إن الميكروب حل مشكلته مع الطاقة : فأخذ سكرا . . وأعطى سمادا

وأفاد كل الكائنات : جمادا . . وحيواناً :

وبذلك لم ينفع نفسه . . بل قدم زكاته لما حوله من النباتات الغير بقولية فهل يعتبر الإنسان ؟!

أعداد الميكروبات هذه بدأت تتناقص ولا بد من حقن الأرض بها لو قل نتاجها

وصدق الله [إنا كل شيء خلقناه بقدر]

الأشجار تمتص «ثانى أكسيد الكربون» وفى نفس الوقت . . تنفث «الأكسجين»

والإنسان بالعكس :
ينفث «ثانى أكسيد الكربون»
ويستقبل «الأكسجين»

وإذن . . فهما يتكاملان تكاملا يحقق الله تعالى به التوازن بين البشر . . والشجر . .

بين الإنسان والبيئة . .

ولذلك قال ص فى بعض وصاياه :

[ولا تغوّروا عينا] يعنى :

معا :
فى مواجهة الشيطان

مدخل

كان للشيطان الرجيم موقف أعلن فيه تصميمه على إغواء الإنسان .

وعلى الطرف الاخر . . كانت للمخلصين من عباد الله "مواقف" أحبط الله تعالى بها كيده . .

ولقد تم ذلك كله عبر معارك ضاريه بين حزب الرحمن . . وحزب الشيطان .

ولقد كانت العاقبه " للتقوى" . .

التقوى التى لا تواجه قيم الشيطان كنظرية فى الذهن أو أمانى فى القلب . . ولكن عن طريق رجال يتمثلونها ويسعون لها سعيها . .

لتكونالعاقبة فى النهايه {للمتقين} . .

خطة الشيطان

يجثم الشيطان على باب القلب الإنسانى :

إنه لا يقف على كتف الإنسان . . ولا يمسك بيده . .

ولكنه يحاول احتلال ملك الجوارح . . وهو القلب . . ليتمكن من السيطرة على الكيان كله . .

وهنا تبدأ المعركه بأسلحتها وفى طليعتها : الذكر.فإذا ذكر المسلم ربه . . خنس الشيطان . . ثم هرب . .

لقد حاول الشيطان أن يحتل القلب . . لكن المسلم ذكر ربه الحكيم القادر . . مستعيذا به سبحانه .

والذى لا يفعل إلا ماكان على مقتضى الحكمه . . وإذ يوسوس الشيطان مذكرا بما يعانيه المسلم من بأساء الحياة وضرائها فإن المسلم راض بحكمته تعالى فى حكمه . .

ومع الذكر . . **هناك أسلحة أخرى** :

١- تلافى مجالسة البطالين لأن الطبع يسرق .

٢- توقى صغار الذنوب فإن لها من الله تعالى طالبا .

٣- الإلحاح فى طلب المغفرة .

٤- التسلح بالتقوى . . فالتقوى :

جنة أى حصن يأوى إليه المؤمن فإذا هو فى مأمن من الهجوم .

متى بدأت خطة الشيطان ؟

وقــد بدأت خطـة الشـيطان المريد بما أشــارت إليــه الاية الكريمة {قــال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين } ص٨٢-٨٣

فهو يقسم بعزة الله تعالى على إغواء كل الناس . ثم يحاول أن يتبرأ من تهمة الكذب فيقول ماحكاه عنه القرأن.

{إلا عبادك منهم المخلصين }

فـهو يعلم يقـينا أن هؤلاء العـباد مسـتثنون من إغوائه . فلا سلطان له عليهم

ومن هؤلاء المخلصين :

أبوبكر رضى الله عنه :

ولقد ظهر ذلك فى تعامله مع خادمه فى بيته .

لقد كان يسـأله دائما عن مصدر مايأتيه من طعام .

وذات يوم لم يسـأله .

ثم علم منه أن فيه شبهة حرام . فأخرجها من بطنه منطلقا من القاعدة الشرعيه :

"كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به "

ولقد كانت له مدرسة بالغت فى توقى الحرام حتى درجة التشبع . . وقالوا فى ذلك : ترك قليل من الحرام . . أفضل من مائة ركعة !

لقد كان الإيمان يومئذ جنة . . وكان ذكر الله تعالى عدة . . وكان الدعاء سلاحا بتارا .

ومن ثم خاض المؤمن معركة الحياة منتصرا . .

ذلك بأن الله تعالى طيب . . لا يقبل إلا طيبا . .

ومن ثمرات ذلك أن المسلم كان يسترخص حياته . . فى مقابل شبهة يرتكبها . .

ولو أنه أكل لقمة . . ثم شك فيها . . لأخرجها من بطنه . . ولو لم تخرج إلا بحياته . . لتنازل عن هذه الحياة !

وكانت الزوجة الوفية تودع زوجها الذاهب فى مناكب الأرض بحثا عن رزقه فتقول له :

إياك والحرام . . فإننا نصبر على الجوع . .

ولانصبر على النار !

إنه التوقى من الذنب . . أن يذهب بالبركه . . يتحاشونه مثلما يذهبون إلى الطبيب طلبا للشفاء .

وما كان للزوجة أن تكون هكذا إلا لأن الزوج كان قدوتها ومثلها الأعلى .

والذى إذا رتع . . رتع كل من فى البيت . . وإذا صبر . . صبروا . .

من مآثر

إبن المبارك

بينما كان يجلس على حافة النهر . . يتوضأ إذ بفرسه يشرد منه .ثم يأكل من زرع الآخرين . .

فأقسم أن يبيعها . . بعد ما غذيت بالحرام . .

وكانت له مندوحة . . لكنه كان ورعا . .

وفى الحج :

لبى الناس . . وسكت الإمام "زين العابدين"

فلما سئل فى ذلك قال :

اعلم أن الله تعالى . قد لا يجيب ناسا فيأتى الرد :

لا لبيك ولا سعديك

فقيل له :

تقول هذا وأنت العالم . . العامل .

ومن نسله صلى الله عليه وسلم .

فقال :

أما الطاعات : فلا أدرى أمقبولة منى . أم مردودة على .

وأما الثانية : فإن الله تعال لم يجعل بينه وبين عبادة نسبا . . إلا بالطاعة . .

فمن أطاعه فاز . . ولو كان عبدا حبشيا . .

ومن عصاه خسر . . ولوكان شريفا قرشيا !

وعلى مستوى الشباب :

ولم تكن هذه الحساسية وقفا على الشيوخ . بل كانت كذلك على مستوى الشباب .

سئل الفتى يوما :

لماذا تذهب إلى عملك . . سالكا أبعد الطرق إليه . .

قال :

إن فى الطريق القريب السهل مكانا عصيت الله تعالى فيه . . وأنا أبغض كل ما يذكرنى بذنبى !!

لقد كان هذا الفتى محكوما بقاعدة تقول :

إن من أحسن فيما بقى . . غفر الله له ما مضى .

ومن أساء فيما بقى أخذه الله تعالى بما مضى وما بقى . . فصمم على أن يحسن فيما بقى من عمره على هذا النحو الصارم.

والأمر على ماقرره الفقهاء :

ليس لك حياتان تخطئ فى واحدة . . ثم تقلع عن الذنب فى أخرى . .

وإنما هى حياة واحده . . هى الحيوان . . هى الدار الاخرة . .

{ ياليتنى قدمت لحياتى }

فالحياة هناك . .

والفوز فيها بالعمل اليومى . .

فبادر إلى التوبة :

ذلك بأن مياه النهر لاتعود مرة أخرى إلى منابعها !!

وقد ترى المصلى اليوم : فى المسجد . . وقلبه فى السوق :

تسأله : ماذا قرأ الإمام ؟

يقول لك : لاأدرى !

وتقول له:

والعمود الحجرى أيضا مثلك لا يدرى !!

فأنت مثله !!

أما المسلم : فله مع الله تعالى موقف اخر :

إن المسلم الحق لا تسره فقط حسنته . . لكن حسه الاجتماعى الإيمانى البصير . . يحمله على أن يسر بالحسنه يفعلها غيره . .

وبنفس القوه تسوؤه سيئه هذا الغير !!

هذه السيئه التى لا يكتفى حيالها بتمعر الوجه . . وإنما يوجه ويحذر . .

وإلا . . فلو اغتم فقط بالسيئة ثم غض الطرف عن باطل غيره . . كان عقابه أشد **ومن صور هذا العقاب**

١- أن يتكلم بالباطل . .

٢- بل ويرضى به . .

٣- بل ويدافع عنه . .

٤- وسوف يلتبس عليه غدا . . بعدما رضى أن يعيش فى هذا الجو العكر راضيا به !

موقف المسلم :

للمسلم موقفه :

أ – قبل المعصية

ب – ومعها

ج – وبعد قضاء وطره منها

قبل المعصية :

كان للإسلام تحذيراته الرادعة . . والتى يكف الله تعالى بها بأس الشهوات . . والشبهات . .

حتى يظل الجسم بالعفة . . معافى . .

وتبقى النفس فى غياب الشبهات أجدر على رؤية الأشياء كما هى . . ثم تنقل الخطى على طريق واضح . .

ومن التوجيهات القرآنية هنا . . قوله تعالى :
﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ ﴾ سورة فاطر ٦.

فالشيطان – لكم بالذات – عدو أى عدو . .

وواجبكم أن تتخذوه عدوا . . فرارا من الهوة التى يجركم إليها . والإثم

الذى يحضكم عليه .

وقد كان من تحذيراته صلى الله عليه وسلم :

إتقاء الشبهات حذر الوقوع فى المحرمات وكانت استجابة الصالحين فورية وحاسمة . .

من حيث كانوا يتركون مساحة من الحلال تفصلهم عن منطقة المحرمات . . حتى لا يقعوا فيها . .

وقد كان للواعظين الناصحين دورهم فى الأخذ بحجز الناس حتى لا يقعوا فى الحرام ابتداء :

يقول الشيخ على الطنطاوى (هذا هو طريق الجنة . وطريق النار :

طريق النار فيه كل ماهو لذيذ ممتع . تميل إليه النفس . ويدفع إليه الهوى .

فيه النظر إلى الجمال ومفاتنه . فيه الاستجابة للشهوة ولذاتها .

فيه أخذ المال من كل طريق . والمال محبوب مرغوب فيه .

وفيه الانطلاق والتحرر . والنفوس تحب الحرية والانطلاق وتكره القيود .

وطريق الجنة فيه المشقات والصعاب . فيه القيود والحدود .

فيه مخالفة النفس . ومجانبة الهوى . . . .

. . . وأقام الله على طريق الجنة دعاة يدعون إليه . ويدلون عليه . هم الأنبياء .

كما قام على طريق النار دعاة يدعون إليه . يرغبون فيه . هم الشياطين .

وجعل العلماء ورثت الأنبياء :

فاطمة بنت محمد ماورثة منه مالا ولاعقارا .

والعلماء ورثوا منه هذه الدعوة . فمن قام بها حق قيامها استحق شرف هذا الميراث .

وهذه "الدعوة" صعبة :

لأن النفس البشريه طبعت على الميل إلى الحرية . والدين يقيدها .

وعلى الانطلاق وراء اللذة . . والدين يمسكها .

فمن يدعوا إلى الفسوق والعصيان . يوافق طبيعتها . فتمشى معهم مشي المياه في المنحدر :

أصعد إلى خزان الماء فى رأس الجبل . فاثقبه بضربة معول . . ينزل الماء وأنت واقف حتى يستقر في قرارة الوادى .

فإذا أردت أن تعيده لم يعد بعد إلا بمضخات . ومشقات . ونفقات بالغات .

والصخرة الراسية فى الذروة لاتحتاج إلا إلى زحزحتها وإمالتها .حتى تتدحرج وتهوى . .

تنزل بلا مشقة ولاتعب . فإذا أردت أن ترجعها ، وجدت المتاعب والمشقات ،

وهذا هو مثال الإنسان :

الرفيق الشرير يقول لك : هاهنا امرأه جميلة . ترقص عارية . تميل إليه نفسك . ويدفعك إليها هواك . ويسوقك إليها ألف شيطان .

فلا تشعر إلا وأنت على بابها .

فإذا جاء الواعظ ليصرفك عنها . صعب عليك الاستجابه إليه .

ومقاومة ميل نفسك . وهوى قلبك .

فدعاة الشر لا يتعبون ولا يبذلون جهدا .

ولكن التعب وبذل الجهد على برعاة الخير . وعلى الواعظ :

داعى الشر عنده ما تميل إليه النفس . من العورات المكشوفة . والهوى المحرم .

وكل مافيه متعة العين والأذن . ولذة القلب والجسد .

أما داعى الخير . فما عنده إلا المنع :

ترى البنت المنكشفة فتميل إلى إجتلاء محاسنها فيقول لك :

غض بصرك عنها . ولا تنظر إليها .

ويجد التاجر الربح السهل من الربا . يناله بلا كد ولاتعب . والنفس تميل إليه فيقول له :

دعه . وانصرف عنه . ولا تمد يدك إليه .

ويبصر الموظف رفيقه يأخذ من الرشوة فى دقيقة واحدة مايعادل مرتبه عن ستة أشهر . ويتصور مايكون له بها من سعة . وما يقضى بها من حاجات فيقول له : لا تأخذها . . لاتستمتع بها .

يقول لهم جميعا :

اتركوا هذه اللذات الحاضرة المؤكدة . لتنالوا اللذات الاتية المغيبة :

دعوا ما ترون وما تبصرون . . إلى مالا ترون وما لاتبصرون . . .

. . . ثم إن المعاصى لذيذة . لأنها توافق طبيعة النفس .:

إنك تجد لذة فى سماع الغيبة . والمشاركة فيها . لأنها تشعرك بأنك خيرا من هذا الذى يذكرونه بالسوء : وأفضل.

والسرقه لذيذة . لأن فيها امتلاك المال بلاكد ولا نصب.

والزنا لذيذ. لأن فيه إعطاء النفس هواها. وإنالتها مشتهاها.

والغش في الامتحان لذيذ. لأنه يوصل إلي النجاح بلا جهد.

والهرب من الواجب-مهما كان-لذيذ علي النفس. لأن فيه الراحة والكسل}

الرذيلة تتحدي:

كان الشاعر الماجن يقول:

رمضان ولي هاتها ياساقي

مشتاقة تسعي إلي مشتاق

بل انه يتخذ القرار الآثم وهو: لن يصوم بعد اليوم:

ولست بصائم رمضان عمرى

ولست باكل لحم الأضاحى

ولست بقائل مادمت يوما

قبيل الصبح : حي على الصلاة!

ولكن الفضيلة تتحدى .. عندما يكون هوى المسلم مع دين الله :

فهو يفطر يوم العيد ..

ثم يصوم ستة من شوال .. مؤكدا قدرته على الصيام حتى عن الحلال ..

بينما الماجن لا يقدر على الصيام .. عن الحرام !!

والفرق هائل بين الاتجاهين :

إن الملحد ينظر إلى نفسه .. مؤثرا رضاها ..

بينما المؤمن ينظر إلى ربه .. على ما يقول الترمذى :

{ اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره اليك .

واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك .

واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه .

واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه }.

أثناء المعصية :

قال الواعظ للمدخن :

التدخين حرام

فقال المدمن : بل قل : مكروه !

فقال الشيخ

ا – المكروه بوابة الحرام

ب – والإكثار من المباح تدليل للنفس يقودها إلى الحرام .. فكيف بالإكثار من المكروه ؟!

ج – فرضنا أنه مكروه .. فهل يرضيك أن تفعل ما يكرهه الله ورسوله ؟!!

لقد نهى صلى الله عليه وسلم عن الشبع :عن تلبية كل ما تشتهيه النفس

(وإذا أكلنا لا نشبع)

إن الشبع يعني الترهل ..

وفي سباق الخيل يهزم من الخيل ماله كرش .

ولا يفوز إلا الفرس المضمر .. المسبوك !

وكذلك سباق الحياة

يقول المجربون

يسمع الفتى عن «المخدر» فيحن بغزيرة «حب الاستطلاع» إلى معرفة « ما هو » ؟

ثم يتحول الحنين الى شوق ..

وذلك لما يراه على الشاشة :

مشهد فتى قوى .. وحوله بنات يتضاحكن ..

والجميع يتعاطى ذلك المخدر

ثم يسوقه قدره إلى مجلس شرب وغناء ..

وإذا بواحد فى المجلس يقدم إليه «حبة» ..

ولأنه مشحون بالشوق فإنه يتقبلها ..

فيجرب .. فإذا هو واضع قدمه فى الرمل الناعم .. والذى يسحبه

فلا يستطيع العودة إلى حيث كان متحررا من هذا البهتان !

بعد المعصية :

بين الحين والآخر .. ننظف بيوتنا .. وننسقها ..

لا سيما حجرة الضيوف .. لأنها مرآة البيت فى نظر الوافدين ..

فلماذا – وبين الحين والآخر – لا ننظف أنفسنا .. ؟

لماذا لا نتعهدها بالندم .. والتوبة .. ؟

حتى تتفتت القشرة عن ثمرة رطبة شهية ؟!

لماذا لا نجعل من أنفسنا .. حبات من العنب فى بستان الحياة .. تسر

الناظرين .. وتشبع الآكلين ؟

وياخسارة الذين يتركون هذة الحبات من العنب .. تتساقط فى الوحل ..

فى أرض سبخة .. فلا منظرها يحلو .. ولا طعمها يشتهى ؟!!

إذا ضعف الإيمان :

لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ..

ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ..

ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ..

أجل .. يضعف الايمان .. فتتراخى القبضة على العروة الوثقى .. فينام

الضمير .. وتسترخى الإرادة ..

ويعنى ذلك : هزيمة جيش المقاومة ..

وهو أنسب الظروف لتدخل الشيطان ..

الذى يهجم على حقل نام حارسه !

الدعاء : سلاح المؤمن

اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب قويت عليه بعافيتك .

ونالته يدى بفضل نعمتك .

وانبسطت إليه بسعة رزقك .

واحتجبت فيه عن الناس بسترك .

واتكلمت فيه على حلمك ..

وعولت فيه على كريم عفوك .

كان الاستغفار

خطتهم اليومية

كان " أبو بكر المزنى " يمشى فى الطريق فسمع حمالاً يردد :

الحمد لله ..

أستغفر الله .

قال :

فانتظرته حتى وضع ما على ظهره .

ثم قلت له :

أما تحسن غير هذا ؟

قال :

بلى :

أحسن خيرا كثيرا .. وأقرأ كتاب الله .

غير أن العبد بين : نعمة .. وذنب ..

فأنا أحمد الله تعالى على نعمه ..

وأستغفره لذنوبى !!

فقال العالم الجليل :

حتيالحمال .. أفقه من أبى بكر !

فانظر إلى فصوص الحكمة والتى لا يستأثر بها الحكماء هناك فى القمة ..

بل هناك فى زحام الحياة .. ومن بين الحمالين .. من يرقى تفكيره إلى هذا المستوى العالى ..

ونذكر هنا ما قاله عالم جليل مكررا نفس ما يقوله ذلك الحمال ..

وذلك حين سئل : كيف أصبحت ؟ فقال :

فى نعمتين .. لا أقدر على شكرهما :

محبة فى قولب لايبلغها عملى

وذنب ستره الله تعالى .. فلم يعيرنى به أحد .

ويستلفت النظر هنا كيف انتظر العالم فلم يحاور الحمال والحمل على ظهره .. وإنما يبدأ حواره بعدما استراح منه .. فكان درسا فى الدعوة فى الوقت المناسب .

من فقه ابن تيمية

يقول ابن تيمية :

(المعصية الثانية . قد تكون عقوبة على المعصية الأولى : فتكون من سيئات الجزاء .

مع أنها من سيئات العمل :

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

(عليك بالصدق : فإن الصدق يهدى إلى البر . والبر يهدى إلى الجنة .

ولايزال الرجل يصدق . ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدوقا .

وإياكم والكذب : فإن الكذب يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار.

ولايزال الرجل يكذب . ويتحرى الكذب حتى يكتب عن الله كذابا)[1]

متفق عليه .

والحديث الشريف يوضح أيضا (أن الحسنه الثانيه قد تكون من ثواب الأولى)

والشاهد من القران الكريم على أن السيئه الثانيه من عقوبة الأولى . . قوله تعالى :

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الروم ١٠

وفي بيان أن الحسنة الثانية من ثواب الأولى يقول تعالى :
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) ﴾ النساء :٦٦-٦٨

ويقول تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت ٦٩

عتاب

إنك تدعى أنك تحب الله تعالى ؟

وكان عليك أن تؤكد الدعوى بدليلها . .

ولكن الدليل هنا يناقض ماتدعى :

فأنت تحب مايكره حبيبك :

لقد ذم الله سبحانه الدنيا . . وأنت تمدحها . .

ثم هو سبحانه يحبب إلينا الآخرة . . وأنت تفر منها .

ألا إن محبته تعالى لاتنال إلا بطاعته . .

ولا ولايته إلا بترك معصيته !

إلينا أيها الحائرون

ولقد كان هناك يائسون . . أوقعهم اليأس فى البؤس . .

حين قنطوا من رحمة الله تعالى . .

ولقد كانت لهم فى اليأس مدرسة . . ومن طلابها

ذلك الشاعر الذى فرض على نفسه العبوس

فقال :

أريد أضحك للدنيا فيمنعنى . . . أن عاقبتنى على بعض ابتساماتى

وأضل منه ذلك اليائس . الذى يحاول أن يصدر يأسه للآخرين قائلا :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأرض . . تنم خاليا من الأوصاب

تلك أم أحنى عليك من الأم . . . التى خلفتك للأوصاب

لاتخف. فالممات ليس بماح منك . . . إلا ماخلفته من عذاب

وحياة المرء اغتراب . . فإن مات . . فقد عاد سالما للتراب

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه لايأس مع الإيمان .

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم

((اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم . .

وأسألك الجنه وما قر ب إليه من قول أو عمل . .

وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل . .))

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم كذلك:

اللهم تقبل توبتنا . واغسل حوبتنا . وأجب دعوتنا وثبت حجتنا . وسدد ألستنا .

اللهم إنا نسألك رحمة من عندك :

تهدى بها قلوبنا . وتجمع بها شملنا . وترد بها الفتن عنا .

وتصلح بها ديننا . وتحفظ بها غائبنا وتزكى بها أعمالنا . وتلهمنا بها رشدنا .

اللهم إنا نسألك منازل الشهداء . وعيش السعداء . والنصر على الأعداء.

اللهم اجعلنا سلما لأوليائك . وحربا على أعدائك :

نحب بحبك من أطاعك من خلقك . ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك)

ألا إن الغفلة من التوبة أشد من الذنب نفسه !

كما أن المذنب بالتوبه قد يصير أفضل مما كان

يقول أحد الحكماء :

تأملت أحوال الطائعين والعصاة فوجدت :

الطائعين يبذلون فى الطاعة جهدا يسيرا

ثم يجازون :

فى الدنيا : براحة البال

وفى الآخرة : بالجنه

ورأيت العصاة يبذلون فى المعصية جهدا أكبر :

ثم يجازون فى الدنيا : بالتمزق

وفى الآخرة : بالعذاب الأليم .

من دعاء

أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

اللهم : يبست جبالنا . واغبرت أرضنا . وهامت دوابنا . وتحيرت فى مرابدها . وعجت[1] عجيج الثكالى على أولادها .

وملت التردد فى مراتعها . والحنين إلى مواردها .

اللهم : فارحم أنين الآنة وحنين الحانة .

اللهم : فارحم حيرتها فى مذاهبها . وأنينها فى موالجها

اللهم : خرجنا إليك حين اعتكرت علينا السنون : فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس .

ندعوك حين قنط الانام . ومنع الغمام . وهلل السوام :

ألا تؤاخذنا باعمالنا . ولا تأخذنا بذنوبنا

اللهم : سقيا منك تعشب بها نجادنا . وتجرى بها وهادنا .

وتخصب بها جنابنا[2] .

فإنك تنزل الغيث بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الوالى الحميد

من مآثر الإيمان

ولقد كان المسلم يستصغر طاعته . .

لأنها بتوفيق الله تعالى . .

ثم يستعظم معصيته . . لأنها عمله . .

١–ارتفع صوتها . ٢– نواحينا .

ومن فعل ذلك . .سلم

ومن معانى الاستعظام : شدة الندم على الذنب . . ومن رحمته تعالى بعبده أنه سبحانه إذ علم منه ندما على ذنبه . . غفره له . . قبل أن يستغفر.

ومع عظمة نعيم الجنة . . فنحن أحوج ما نكون إلى المغفرة . .

وتذكر إحساسك بالراحه عندما يصفح عنك من أسأت إليه . .

فكيف إذا غفر لك الله تعالى ماتقدم من ذنبك مغفرة يصفو بها إحساسك بنعيم الجنة . .

وإقرأ قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾

إلى قوله تعالى فى نفس الأيه الكريمه ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ محمد ١٥

أما المصرون :

أما المصرون فيقول الله تعالى فيهم :

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ الروم ١٠

يمضى المسلم فى طريقه دليله فى صدره : تسره حسنته . .

فيستكثر من الحسنات . .

وتسوءه سيئته . . فيحاول الفرارَ منها . .

وبينما المسلم كذلك . . فإن الفاجر يمضى على غير هدى : على حل شعره :

يستمرئ المعصيه بعد المعصيه . . فكان جزاؤه : السوءى . و بإستمراء الكذب أن يظل متمرغا فى أوحاله . . لأنه هو الذى إختار ذلك . .

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وإذا سقط متبجح فى الامتحان يوما . . فتجاوزه عنه . .

أجل : تجاوز عن كشف الصفحات وإظهار السوءات . .

فلن تبلغ منه مايبلغ هو من نفسه . بإعلانها . والتباهى بها !

ألا وإن أمر المصرين على يقول سبحانه . .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ﴾ التوبه ٥٣-٥٤

الاسغفار

سيد الاذكار

يقول الحق عز وجل :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) ﴾ محمد ١٩

تشير الايه الكريمة إلى خطة المسلم اليومية . . التى تحدد مراحل الطريق . . ثم مسئوليته فى كل مرحله من هذه المراحل :

إن للمسلم ثلاث حالات :

حال مع الله تعالى . .

ومع نفسه

ثم .. مع المؤمنين من حوله ..

أما حاله مع الله .. فهو توحيده .. فتلك هى قاعدة انطلاقه على طريق الاستقامة .. ليكون جديرا بالإقامة

أن يعيش جميعا .. وأن يموت جميعا : لا تتوزعه الأهواء .. ولا تمزقه

الأغراض .. بحيث يكون هدفه واحدا يكدح إليه كدحا حتى يلاقيه ..

وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى :

{ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا }

فالمشرك واقع تحت سلطان شركاء مختلفين حمقى .. يتحول فى خضم نزاعهم إلى أجزاء وتفاريق .. بينما يظل الموحد بنجوه من هذا التمزق .. سعيدا بوحدة المالك .. الذى يحس معه بالأمان والقرار .. وثبات الشخصية

أهمية الاستغفار

يبدو الاستغفار على غاية ما تكون الأهمية .. للأسباب الآتية :

أولا :

هو نفسه غاية .. نحن مأمورون بالمسارعة إليها وقبل الرغبة فى الجنة .. لتتم التحلية .. بالتخلية .

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ ! آل عمران١٣٣

مع ملاحظة أنها " المسارعة " .. ولا يكفى هنا " المشي " ولا " الانتشار "

لأن القضية متعلقة بالآخرة .. فالمطلوب فيها :

المسارعة .. بل التنافس فيها والمسابقة إليها .. وبالخطوة السريعة كما يقول العسكريون !

أما إذ تعلق الأمر بالدنيا .. فيكفى مجرد " المشى "

و" الانتشار" فى الارض .. لأن قضايا الدنيا لا تستأهل أن نتدافع إليها بالمناكب .. فمن ورائها المعاطب !

ثانيا :

إن فى الاستغفار إحباطا لكيد الشيطان الذى نهلكه بهذا الاستغفار .. وبالتالى يتسع أمامنا الطريق إلى مرضاة الله تعالى .. بتدمير كيد الشيطان :

قال ابن الجوزى :

{ إن إبليس قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب ..

وأهلكونى بالاستغفار .

فلما رأيت منهم ذلك ثبت فيهم الأهواء :

فهم يذنبون . ولا يتوبون .

لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا } !

وتأمل كيف ينجح إبليس أحيانا .. عندما يصوب صواريخه إلى المسلم .. فيتصدع بنيانه ..

ولاحظ أيضا .. كيف يتصدع البنيان . ولكنه لا ينهار ..

وذلك . . عندما يستيقيظ المسلم . . وبه رمق من الحياه والتحدى . . فيقاوم إبليس حتى يهلكه بسلاحه الذى لايفل .

وهو سلاح الاستغفار .

ولكن الشيطان الرجيم لا ييأس أبدا . . حين يظل مصمما على الإبرار بقسمه لإغوائنا . . فيحاول أن يطور أسلحته بعد هزيمته فى الجوله الأولى .

وذلك حين يقرر شحن الإنسان بالهوى الذى يقذفه فى قلب المسلم . . بالذات .

هذا الهوى الذى من طبعه التقلب : كالمرآه فى كف الأشل . .

لايستقر به على حال من القلق والتردد . .

وخط الدفاع الأخير وثالث الأسباب المؤكده أهمية الاستغفار . ماقاله الإمام الغزالى :

(لقد كان لنا أمانان من العذاب :

ذهب أحدهما . . وهو : كون الرسول فينا .

وباقى الاستغفار معنا .

فإذا ذهب . . هلكنا)

وذلك قوله تعالى

(وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)

يقول أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه :

(كان فى هذه الآية أمانان :

أما النبى صلى الله عليه وسلم . . فقد مضى . .

وأما الاستغفار : فهو كائن فيكم إلى يوم القيامه)

واجب المسلم مع نفسه :

أن يشغلها بما يصلحها . . بادئا بالاستغفار الذى هو سيد الأذكار . . والذى يمسح الله به أوضار الماضى . . ليكون المستغفر فى طهره منسجما مع جو الجنة الطهور . .

وإذا كنا – نحن البشر – نعفو ونتسامح .. فإن ذلك يعنى فقط : أننا نسقط اللوم والندم . .

أمازيادة الثواب فليست لنا : وإنما هى الحق المطلق للغفار الوهاب . . الذى نسأله سبحانه وتعالى : أن يجعلنا من : الطائعين . . الطامعين فى مغفرته .

صيغة الاستغفار

يقول العارفون :

(لا يقولن أحدكم : أستغفر الله . وأتوب إليه .فيكون ذنبا وكذبا . . إن لم يفعل .

ولكن . ليقل:

اللهم اغفرلى وتب علي)

معنى الاستغفار

أن يطلب العبد من ربه :

أن يستر القبيح من أقواله وأفعاله ،

ذلك لأن الذنوب أقبح القبائح . . ونحن مطالبون بالتوجه إلى الله عز وجل فهو الذى يظهر الجميل . . ويستر الرذيل . . إنه الغفور : كثير المغفرة . .

الغفور : الشامل الكامل فيها :

يسقط العقاب . وينيل الثواب .. وليس هذا الإللمؤمن..

من صور الاستغفار

أ –عن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول :

" من قال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو . الحى القيوم . وأتوب إليه – ثلاث مرات – غفرت له ذنوبه وإن كانت عدد رمل عالج . وإن كانت عدد أيام الدنيا)

وفى روايه . . " وإن كانت مثل زبد البحر "

وقال لقمان لابنه : يابني : عود لسانك الاستغفار : فإن لله ساعات لايرد فيها سائلا .

وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار فى قوله تعالى :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله وأستغفر لذنبك)

ومن دعاء الصالحين :

(اللهم : يامن لاتضره معصية . ولاتنفعه الطاعة أيقظنا من نوم الغفلة . . ونبهنا لاغتنام أوقات المهلة . ووفقنا لمصالحنا . واعصمنا من قبائحنا)

ألا أيها الناسي ليوم رحيله . . . أراك عن الموت المفرق لاهيا

ألا تعتبر بالراحلين إلى البلى . . . وتركهم الدنيا جميعا . . كما هيا

ولم يخرجوا إلا بقطن وخرقة . . . وما عمروا من منزل ظل خاليا

وأنت غدا أو بعده في جوارهم . . . وحيدا فريدا في المقابر ثاويا

ومن صور الاستغفار

(تعلق أعرابي بأستار الكعبة وقال :

اللهم : إن استغفاري مع إصراري . . لؤم .

وإن تركي الاستغفار . . مع علمي بسعة عفوك :

لعجز

فكم تتحبب إلى بالنعم . . مع غناك عنى .

وأتبغض إليك بالمعاصي . . مع فقرى إليك . .

يامن إذا وعد وفى . .

وإذا توعد . . تجاوز وعفا :

أدخل عظيم جرمى . . فى عظيم عفوك ياأرحم الراحمين)

وقفة متأملة

إن العبد النادم هنا يعرف سلفا نفاسة مغفرة ذنبه . .

وقبل هذا يعرف عظمة من فرط فى جنبه سبحانه وتعالى . .

ومن أجل ذلك . . لا يتحايل ولا يخادع نفسه . . ولا ربه سبحانه . . ولم يكن . . وكيل نيابة . . فقط . . يحاكم نفسه الأمارة بالسوء . .

ولكنه يعتلى المنصة قاضيا يصدر حكمه عليها ابتداء بأنها نكارة للجميل . . بل تقابل الإحسان بالإساءة ؟!

فكلما توالى عليها نعم الرحمن . . كلما تمادت فى العصيان . . ثم يزداد إحساسه بفداحة جرمه . . ملحا فى الدعاء ألا يقطع الله تعالى عنه عادته فى الإحسان إليه . . راجيا أن يكون عفوه شلالا هادرا بالمغفرة . . لتصبح ذنوبه فى خبر كان ؟؟

ولا تنس أنه وقبل أن يدعو وجد نفسه بين شقى الرحى :

فى مضيق لا يخرج منه إلا أصحاب اليقين :

فقد كان يستشعر حجم ذنبه . . ثم يستغفر ربه الغفور . .

لكن نفسه تغالبه على الذنب . . فتغلبه . . فيعود إليه . .

وإذن فهو لئيم حين يدعو . . وهو فى نفس الوقت متناقض مع نفسه السادرة فى غيها . .

لكن اليقين يسعفه بما يبدد حيرته . وهو أن الله تعالى مايزال عفوا كريما . . وإذن فتوقف الغفران عجز يحرم المذنب من هذه الفرصة السانحة . .

وحين يلمح هذا الضوء الأخضر .. يسمح لنفسه أن تدخل الساحة الطهور . . معترفا بذنوبه . . بل بجحوده ؟

إنه الإنسان :

رحلته على هذه الإرض – مهما طالت – فهى قصيرة الأمد . . وعمره سينقضى . . مهما امتد . . وعليه أن يسأل نفسه – وقد سألها هنا – :

بماذا ستلاقين ربك غدا ؟!!

باليد الفارغة ..

بالكتاب القاتم ..

لقد عقد الأعرابى عزمه على أن الأمر: جد .. لا هزل ..

فماذا هو فاعل كإنسان .. وسنان ؟!!

متى تتحرك همته .. فى اتجاه الحق .. ولقد فرد شراعه فعلا .. وها هو ذا يطرق الباب .. ولابد لمدمن الطرق أن يدخل يوما .. وإن طال به المدى .

الدرس العظيم

ولقد نبه "الأعرابى" الغافلين من العصاة أنهم يديرون حياتهم على محور التناقض .. فكيف يصل بهم السفين إلى بر الأمان ؟!!

وإنها لهزة عنيفة حتى يفيق الإنسان ليصحح أوضاعه مع الحياة .. والأحياء .. ثم ليرتفع بعد ذلك ليوفق هذه الأوضاع مع خالق الحياة والأحياء ..

فماذا تقول الطبيعة من حوله .. ومن فوقه ؟!

(إن الغيوم .. رسالة البحر إلى الحقول والغابات .. وإن السحب الحافلة بالمياه .. هدية البحر إلى الإنسان ..

ولكن الإنسان الكنود يرد الجميل : نفايات يرميها فى هذا البحر .. فيسىء إلى نفسه .. قبل أن يسىء إلى البحر .. وهو هو نفسه الذى يتنكر لجميل الغفار عليه ..)

ولكن الأعرابى اليوم .. يؤكدلنا أن باب الأمل .. مفتوح دائما { طوبي لمن شغله عيبه عن عيوب الناس

أجل .. اشتغل بخاصة نفسك أولا .. حاول أن تتخلص من ذنوبك لتكون

مؤهلا من بعد لإصلاح غيرك :

لأنك مسئول عن ذنوبك مهما قلت ولست مسئولا عن ذنوب غيرك مهما جلت :

قيل لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

إن فلانا تقطر لحيته خمرا .. فقال :

نهينا عن التجسس.

ولكن إذا ثبت عليه شىء أخذناه به .

مغزى هذا التوجيه :

وبهذا التوجية السديد نحمى المجتمع المسلم من سلبيات منها :

١-أننا .. باتهام الآخرين .. نفتح باب الأخذ بالظن . والمنتهى بتلويث سمعة الآخرين .

٢- تتراجع قيمة الحياء ..

٣- يتبلد الضمير .. فلا يمارس وظيفة المراقبة .

٤- الشك المطلق فى كل القيم الإنسانية الأصيلة .

٥- ربما فتح باب تقليد هذه النماذج الرديئة ..التى وضعناها فى قفص

الاتهام لمجرد ظن هش .. لا يصبر على النقد الصحيح .

ألا إننا منهيون عن الظن والتخمين .. مأمورون فى نفس الوقت بالتثبت واليقين ..

وإذا كان فى المسلمين من وفقه الله تعالى إلى طاعته .. فركب الغرور .. أو ركبه الغرور .. فليطامن فى نفسه هذا الاستعلاء .. لأن المجربين يقولون :

لأن تبيت عاصيا .. وتصبح نادما .. خيرلك من أن تبيت قائما .. وتصبح معجبا !!

وربما أنشأت المعصية ندما فى قلب لمعاصى .. فبرأه الله من المعاصى .. وخلصه من ذنب .. قد يكون فيك .. وأنت لا تدرى ..

فكن كريما فى معاملة الخطائين ..

إن الكريم إذا تمكن من أذي . . . جاءته أخلاق الكريم فأقلعا

وترى اللئيم إذا تمكن من أذى . . . يطغى .. فلا يبقى لصلح موضعا .

اول الغيث

{ وأول مراحل الاستغفار :

الاستجابة ..

ثم الإنابة ..

ثم التوبة ..

فالاستجابة : أعمال الجوارح .

والإنابة : أعمال القلوب .

والتوبة : الإقبال على الله .. بترك الخلق }!

قال الفضيل :

"إن الاستغفار بلا إقلاع هو : توبة الكذابين

وقالت رابعة العدوية :

استغفارنا يحتاج إلى استغفار !؟

وإذن .. فاستغفر لذنبك .. يحملك على هذا أمور :

١- ما قاله الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز :

(إن الدنيا دار ظعن .. ليست بدار إقامة .

لها فى كل حين قتيل :

تذل من أعزها . وتفقر من جمعها :

هى كالسم : يأكله من لا يعرفه . وفيه حتفه .

فكن فيها كالمداوى جراحه : يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء مخافة طول الداء.)

٢- إن الذنوب إفساد فى الأرض بعد أن أصلحها لك الله :

فقد خلقها الله لك صالحة للعيش الهنىء ..

فكيف تفسدها بالمعاصى ؟

إن الأرض تحت قدميك لم تظلم .. ولكنك أنت الذى تصر على الظلم ..

واقرأ قوله تعالى :

{ كلتا الجنتين آتت آكلها ولم تظلم منه شيئا }!

إن شجرة العنب .. تثمر العنب ..

والنخلة .. تثمر الرطب الجنى ..

ولكن الانسان العاقل هو الذى يظلم نفسه .. حين يضع مواهبه فى غير موضعها .. فيبدد طاقاتها فيما لم تخلق له ..

وما تزال الطبيعة من حوله تلقنه الدرس .. إن الوردة تنام عند المساء .. ثم تفتح عينها عند الصباح مرسلة مع النسيم العليل رسالة الزهر إلي الأحياء عطرا..

فكيف يليق بالانسان أن يفجر أمامه .. ملوثا البيئة بآثامه وإجرامه ؟!!

مصرا على أن يظل حيث القمامة والقذى .. بينما الوردة ترسل العطر .. ثم تحتفظ لنفسها بالشوك ؟!!

إنها واحدة من تناقضات الحياة :

وتأمل من قوانين بعض الدول : أن من قتل نفسا .. يعدم . وأما من رمى بالفضلات والنفايات في البحر .. فيقتل المئات .. لا يعاقب .. بل لا يعاتب !!

٣- يقول المحققون :

{ كلما عظم المطلوب في قلبك . صغرت نفسك عندك . وتضاءلت القيمة التي تبذلها في سبيله .

وكلما شهدت حقيقة الربوبية . وحقيقة العبودية وعرفت الله . وعرفت النفس وتبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق .. ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته .

وإنما يقبله بكرمه وجوده . وتفضله . ويثيبك عليه أيضا بكرمه وجوده وفضله }!

ولانجاة للنفس إلابالاستغفار الذي يثبت الله تعالى به الذين آمنوا :

{ فلا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله . وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به . وأقربهم إليه وسيلة :

{ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا }!

وقال عز وجل فى يوسف الصديق :

{ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين }

من آثار الاستغفار

١- عن طريق الاستغفار المشفوع بالتوبه النصوح . . تضع الأمة أقدامها على طريق الرخاء والمتعة الحلال :

عيشه واسعة . ونعم متتابعه .

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

(وأن إستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا)

إنه نفس المتاع وجوهره . لأنه أمن زوال محبوبه . . وغيره فى قلق دائم . . إن المستغفرين من المتقين هم الفائزون بالمتاع الحق . . وإن بدا أن الله تعالى ضيق عليهم الرزق أحيانا . . شريطة أن يواصلوا المسير على طريق الاستقامة . . بالتوبة التى هى :

بداية العبد ونهايته . وحاجته إليها فى النهاية ضرورية . كما أن حاجته إليها فى البدايه كذلك .

وقد قال الله تعالى :

(وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)

وهذه الآية فى سورة مدنية : خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليهه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم)

٢- الإمداد بالقوة :

يقول عز وجل :

(وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين)

لقد كان القوم أصحاب زروع وبساتين وعمارات ..

فكانوا أحوج الى الماء ..

ولما كانوا يتباهون بذلك.. أغراهم بزيادة هذه القوة لو أنهم سلكوا اليها طريقها وهو :الاستغفار

ثم التوبة .. وقد قيل :

{ إن المذنب معرض عن طريق الحق .

والمعرض المتمادى .. مالم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه الى المقصود بالذات . فلابد من الإعراض عما يضاد الاستغفار .. و : بالتوبة النصوح .

وفى سورة نوح يقول عز وجل :

{ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا }

وعن زيادة القوة بالاستغفار . يقول صاحب الظلال :

(فأما زيادة القوة . فالأمر فيها قريب ميسور بل واقع مشهود :

فإن نظافة القلب . والعمل الصالح فى الأرض . يزيدان التائبين العاملين قوة . .

يزيدانهم صحة فى الجسم . . بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق . . وراحة الضمير . وهدوء الأعصاب . والاطمئنان إلى الله . والثقة برحمته فى آن .

ويزيدانهم صحة فى المجتمع : بسيادة شريعة الله الصالحة . التى تطلق الناس أحرارا كراما لا يدينون لغير الله . على قدم المساواة بينهم . . أمام قهار واحد . تعنوله الجباه .

كما تطلقان طاقات الناس . ليعملوا . وينتجوا . ويؤدوا تكاليف الخلافة فى الأرض . غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية . . وإطلاق البخور حولها . ودق الطبول . . والنفخ فيها ليل نهار . لتملا فراغ الإله الحق

والملحوظ دائما : أن الأرباب الأرضية . تحتاج . ويحتاج معها سدنتها وعبادها . . أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية : من المقدرة والعلم . والإحاطة . والرحمة !؟ أحيانا . . كل ذلك ليدين لها الناس ؟ فالربوبية تحتاج إلى ألوهية تخضع بها العباد ؟

وهذا كله يحتاج إلى كد ناصب من السدنة العباد . . وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده فى عمارة الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها .

لقد تتوافر القوة لمن لا يحكمون شريعة الله فى قلوبهم ولا فى مجتمعهم ولكنها قوة إلى حين . .

حتى تنتهى الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله .

وتتحطم هذه القوي التى لم تستند إلى أساس ركين .

إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام . ووفرة النتاج . وهذه وحدها لاتدوم .. لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضى عليها بعد حين

فأما إرسال المطر مدرارا:

فالظاهر للبشر أنه يجرى وفق سنن طبيعية ثابتة فى النظام الكونى .

ولكن جريان السنن الطبيعية لا يمنع أن يكون المطر محييا فى مكان وزمان . . ومدمرا فى مكان وزمان . .

وأن يكون من قدر الله تعالى أن تكون الحياة مع المطر . . لقوم . . وأن يكون الدمار معه . . لقوم . .

فهو وحده سبحانه يوجه العوامل الطبيعية :

فهو خالق هذه العوامل . وجاعل الأسباب لتحقيق سننه على كل حال .

ثم تلقى وراء ذلك مشيئة الله الطريقة التى تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس من ظواهر النواميس . وذلك لتحقيق قدر الله كما شاء . حيث شاء . غير مقيد بما عهده الناس)

من كمال النفس

إلى تكميل الغير

ولقد كان سلفنا الصالح حراصا على الاستغفار لغيرهم من الخطائين . . ليكونوا معهم . . فوق القمة العالية . . والتى تسع الجميع : قال عبد الرحمن بن كعب ابن مالك :

(كنت قائدا أبى حين ذهب بصره

فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان استغفر الله لأبى أمامة [أسعد بين زرارة] ودعاله .

فمكثت حينا أسمع ذلك منه

ثم قلت فى نفسى.

والله إن ذا لعجز !! :

إنى أسمعه كلما سمع أذان الجمعة . يستغفر لأبى أمامة ويصلى عليه . . ولا أسأله عن ذلك . . لم هو ؟!! فخرجت به كما كنت أخرج به إلى الجمعة فلما سمع الأذان استغفر . . كما كان يفعل .

فقلت له .

يأبتاه !

أرأيتك صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعه لم هو؟!!

قال أى بنى :

كان أول من صلى بنا صلاة الجمعة . قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكه .

قلت :

كم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعين رجلا][1]

فانظر ماذا ترى :

الابن الشاب . . لم تجرفه دنياه بعيدا . . زاهدا فى والد حرم نعمة البصر . وإذا كان في دنيانا اليوم من يترك أباه تأكل معه القطط والكلاب استهانة به . . فإن عبدالرحمن مازال هوالابن البار . . بوالد أعانه من قبل على بره . . بما أحسن من تربيته صغيرا . . فنال جائزته كبيرا . .

بل إن الولد هنا حريص على أن يبقى والده – كما كان فى شبابه – سيد البيت . .

وذلك أنه لم يجرؤ . . وعلى مدى سنوات أن يطلب من أبيه تفسير موقف له كان سره غامضا . .

إبن ماجة ١٠٨٢

ولما استجمع الولد أطراف شجاعته . . فسأله كان سؤاله على غاية مايكون الأدب . . فكان مسترشدا لا معاندا وذلك قوله :

ياأبتاه !!

فلما جاءه الجواب . . سكت . .

سكت مقتنعا . . سعيدا بهذا الدرس الذى به تتواصل الأجيال .. . حين ظل أبوه محتفظا بجميل " أبى أمامة . . فى الصلاة . . والتى ظل وفيا له بعد مماته . . بهذا الدعاء . . وهذا الاستغفار .

معنى إستغفارك لأخيك

حين تطلب المغفرة لأخيك . . فإن ذلك يعنى :

أولا أن يعود مثلك نظيفا . . كما كان

ثانيا: أن تكون البيئة خالية من الموبقات . .

وثالثا : تأكيد لطهارتك أنت :

ذلك بأن الجنس للجنس أميل :

فالطاهرون يحبون الطاهرين

أما الأنجاس . . فإن المقتضى فى حسهم قد يكون مانعا . .

وقد سجل القرآن ذلك فى قوله عز وجل :(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون)

ويعنى هذا أن الطهارة عندهم سبب للإخراج وكان الظن أن تكون مانعا.

مغزى الإعراض

وإعراضك عن الاستغفار لأخيك يعنى أنك تريد للبيئة أن يظل الجو فيها خانقا . .

وأن تظل على القمة وحدك . .

وأن تتناقص قوة الإسلام بالإبقاء على لبنة من لبناته ضعيفة . . يؤتى البنيان من قبلها .

عن جندب رضى الله عنه :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث :

(أن رجلا قال : والله لايغفر الله لفلان . .

وإن الله تعالى قال :

من ذا الذى يتألى على ألا أغفر لفلان [يتألى : يحلف]

فإني قد غفرت لفلان . وأحبطت عملك] .

إن الرجل هنا يقسم . . مؤكدا بقسمه أن الله سبحانه لن يغفر لفلان . . وبالاسم . .

ومن كرامة المسلم على ربه أن يخاطب هذا الذى يريد أن يكون كما نقول – ملكيا أكثر من الملك – يقول له :

لقد عاقبتك بعكس مقصودك :

فأحبطت عملك أنت . . وغفرت لفلان هذا رغم أنفك !!

ولقد كان هذا الجزاء عادلا . . لأن الرجل هنا "أنانى " يحب أن يظل على القمة وحدة . . ولم يحببه إسلامه فى مسلم يمضى معه على طريق الإيمان . لكنه تعثر فى الطريق . . وواجبنا أن ننقذه . . أن نأخذ بيد الجواد الذى كبا . . ولقد نسى هذا الرجل أنه تخلف عن ركب المستغفرين لهذا الرجل الذى ضن عليه بالدعاء له أن يكون مثله : فالملائكة جميعا يستغفرون له بل إن خاصة الملائكة وهم حملة العرش مشغولون بالاستغفار لكل من كبابه جواده

يقول عز وجل :

(الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابواواتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) غافر.

تصفية الحساب

وقد يكون ذلك تصفية لحسابات قديمة بين المسلم وأخيه المسلم .

وقد يكون جهلا . . وحمقا وعنادا يسئ به المرء إلى نفسه أولا. وذلك يعنى نجاح الشيطان فى خطة الإفساد . . والتى بها يشيع جو الاتهام . . ثم يكون الأمر على ما قيل : من أسرع إلى الناس بما يكرهون . . قالوا فيه مالا يعلمون

ومن تتبع مساوى العباد . . فقد نحلهم عرضه .

وفى ذلك يقول الشاعر :

لاتكشفن من مساوئ الناس ماستروا . . . فيكشف الله سترا من مساويكا

واذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا . . . ولاتعب أحدا منهم بما فيكا

وينبغى أن تتراجع حظوظ النفس ليكون المسلم فى بؤرة شعورك مهما كان تصرفه معك ظالما :

قال الإمام على رضى الله عنه :

[لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره . .

فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر

قال الحطيئه

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه . . . لا يذهب العرف بين الله والناس

وقد ركز الشعراء على هذا المعنى بمثل قول الشاعر

يد المعروف غنم حيث كانت . . . تحملها كفور أم شكور

ففى شكرا الشكور لها جزاء . . . وعند الله ماكفر الكفور

ولأجل هذا السبب يجب أن يكون حرصنا على مودة الناس أثقل من نزعة الانتقام فى قلوبنا . .

وهذا مانوه به الشاعر القائل :

احرص على ود القلوب من الأذى . . . فرجعها بعد التنافر يعسر

إن القلوب إذا تنافروها . . . مثل الزجاجه : كسرها لايجبر

جذور فى الهواء

هذا الذى يقسم بأغلظ الايمان أن الله تعالى لن يغفر لفلان . . لاريب أنه صادر فى قسمه عن عاطفة دينية مشبوبه تود لو أن الناس آمنوا جميعا . .

وأملهم الأكبر ألا يخطئ أحد . . وأن تظل البيئة كما برأها ربها . . نظيفة عفيفة . .

ومن قبله تمنى الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك . .

يشير إليه قوله تعالى :

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)

(لعلك قاتل نفسك من شدة الغم والوجد : حين تولوا عن إجابتك فكانو كمن قوضوا خيامهم وأذهبوا أعلامهم)

ثم يجيئه الجواب الصريح فى قوله تعالى :

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)

وإذا كان الشأن كذلك مع مبلغ الدعوة صلى الله عليه وسلم . . فأحرى بالمسلم أن يفهم الدرس . . واقفا عند حدود وظيفته . وعلى قدر مسئوليته .

ولكن أكثر الدعاة لا يفهمون . . ومن ثم لا يتفاهمون !! حين يفرغون طاقة الغضب فيمن عصى . . متجاوزين حدودهم . .

وقد تسمع أحدهم اليوم . . يتوعد بالويل والثبور . . ذلك الرجل الذى جاءه معلنا ندمه على ماقدمت يداه . . ثم يتساءل ماذا يفعل لو أنه أوقف مسلسل العصيان . . مستأنفاً رحلته مع الإيمان ؟!

لقد جاءه خاشعا يطلب الخلاص . . جاءه فرعا بلا زهر . . وعودا بلا وتر !!

وكان عليه أن يشفق عليه . . بالإحسان إليه . . حتى يستنبت له ريشا

يطير به فى الجواء الطاهرة . .

لكنه . . كأخ له من قبل : يتوعده . . على نحو ربما عاد به إلى دنيا العصيان . . أسوأ مما كان !

ولقد كان له فى رسول الله أسوة حسنة . . حين حذر من شتم " الغامدية التى صارت بالتوبة أجدر بالمغفرة من هذا الذى شتمها . .

ألا إن الحماس للدعوة إلى هذا الحد : غير واقعى بل غير قرآنى :

فالقرآن الكريم يقول :

[ولاتجد أكثرهم شاكرين]

وإذن فتصور الناس جميعا مؤمنين وموحدين . . طائعين . . هذا التصور يجافى منطوق هذه الآية الكريمة . . فلن يكون الناس ملائكة . . وإنما هم بشر . . خطاؤون .

وهم فى ذمة الله تعالى . . إن شاء عذبهم فهم عباده .

وإن شاء عفا عنهم . . فإنه غفور رحيم

وواقع الحياة شاهد بأن الكرام قليل . . ويجب أن نعترف بذلك .

قال السموأل :

تعيرنا أنا قليل عديدنا . . . فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا . . . عزيز وجار الأكثرين ذليل

وقال أخر :

ماأكثر الناس الا بل ما أقلهمو . . . الله يعلم أنى لم أقل فندا

إنى لأفتح عينى حين أفتحها . . . على كثير . . ولكن لا أرى أحدا !!

إن استيعاب هذة الحقيقة يخفف من حدة الحماس المردى . . وتجربتنا اليومية شاهدة بتراجع القيم . . وخراب الذمم

وما أكثر موائد الأغنياء اليوم . .

ثم ماأكثر حولها الرجال . .

ولكن . . لن تجد فيهم صديقا واحدا !!

عود على بدء

تأملنا قوله تعالى [لا يحب الله الجهر بالسوء] ونضيف إلى ما قلناه مالاحظناه من كرمه عز وجل . . والمشار إليه بقوله تعالى بنفس الآية الكريمة :

(. . إن تبدو خيرا أو تخفوه أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا)
النساء : ١١٩

ومعنى ذلك :

أنه تعالى يظهر الوجه المضئ الوضئ : فيتحدث عن الخير . . وعن العفو . . ويطوى ذكر الشر . . والانتقام . . إيثارا يبدو فيه الجو طاهرا . بريئا من الخبث . . وحتى يتعلم الإنسان . . فيتخلق بأخلاق الرحمن . .

وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها . . فإننا نذكر منها موقف عمر رضى الله عنه . . والذى عبر عن فرحته بإسلام رجل يزدان به تاج الإسلام . .

صحب عمر رضى الله عنه "العباس " رضى الله عنه . . وقبل أن يسلم . . صحبه . . فى طريقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . فقال له عمر :

والله . . لأسلامك أحب إلى من إسلام "الخطاب " !!

فانظر كيف . . ينتشى القلب الكبيبر مبتهجا . . بدخول رجل واحد

فى الإسلام . .

وكيف يخاطب العباس على نحو يغريه بالدخول فى الإسلام . . فقد كان من السهل على الفاروق أن يشن الغارة عليه .

ولكنها الحكمة التى تؤكد : أن الوقت الذى نبذله فى شتم خصومنا . . يكفى لإصلاح أخطائهم ؟

أما بعد : فقد سأل الشيخ عن سبب نسخ تلاوة الآية :

(الشيخ والشيخ إذا زنيا فارجموهما ألبته . .)

فما كان جواب الشيخ إلا أن قال :

لا يسأل عما يفعل . . فلنسلم طائعين مستجيبين !!

وقلت له :

بل نحن مأمورون بتلمس الحكمه فى إطار مانحن مكلفون به من تدبر القرآن . . مع الأخذ فى الاعتبار أننا لا نقول الكلمة الأخيرة . . وأننا فقط نحاول . . ويمكن هنا أن نقول :

إن نسخ هذه الآية تلاوة . . مع بقاء حكمها . . إشارة من الشارع الحكيم يصون بها البيئه حتى تظل صافية من الأكدار :

لقد نسخها الحق تعالى . . حتى لا يتصور أحد إمكان أن يزنى الشيخ أو الشيخة . . حتى ولو كان ذلك مجرد افتراض !!

من ملامح المجتمع المؤمن

ومن خصائص المجتمع المؤمن .. أن من قصده من الخطائين فهو هدية الله إليه .. ليتوب على يديه ..

وهو مشمول معه برحمة الله تعالى ..

وليتعلم المخلوق من سعة رحمته تعالى وشمول مغفرته كيف نستقبل الخطائين بقلب مفتوح :

عن أبي هريرة رضي الله عنه . عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

{ إن لله تعالى ملائكة سيارة .. يتبعون مجالس الذكر :

فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر . قعدوا معهم .

وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم .. حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا .

فإذا تفرقوا .. عرجوا وصعدوا إلى السماء .

قالوا : فيسألهم الله عز وجل – وهو أعلم بهم – :

من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبادك في الأرض : يسبحونك . ويكبرون . ويهللونك . ويحمدونك . ويسألونك . قال :

وماذا يسألوني ؟ قالوا :

يسألونك جنتك قال :

وهل رأوا جنتى ؟ قالوا :

لا . . أى رب .

قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟!

قالوا : ويستجيرونك ؟ قال : وممن يستجيروننى ؟ قالوا: نارك يارب . قال:

وهل رأوا نارى ؟ قالوا : لا . قال : فكيف لو رأوا نارى ؟

قالوا :

ويستغفرونك قال : فيقول :

وقد غفرت لهم : فأعطيتهم ماسألوا . وأجرتهم مما استجاروا .قالوا : فيقولون :

رب : فيهم فلان عبد خطاء . . ؟إنما مر فجلس معهم .

فقال : فيقول : وله غفرت :

هم القوم لايشقى جليسهم) !!

وتأمل من فضل الله تعالى لعباده . . وهو خالقهم . . والغنى عنهم . .

يرسل لهم من رسله . . من يبلغه تعالى أعمالهم وأقوالهم . . ثم يخصون مجالس الذكر والاسغفار بمزيد من العناية . . حتى إذا رأوا غريبا قد اندس فيهم . . بينما هو محمل بالخطايا . . فهو خطاء وليس فقط مخطئ . .

حتى إذا رأوه ظنوا أنه معزول . . أو هكذا يجب أن يكون . لأنه لن يرتفع إلى مستوى هؤلاء الأطهار الأبرار . .

ولكن الرؤوف الرحيم سبحانه . . يعلمهم أنه ومن قبلهم . أحق بالمغفرة . . لأنه مريض . . فهو أجدر بالعلاج من غيره . . وإنما الطبيب للمرضى . .

ونحن أساة . . ولسنا قضاه !

أدعيه مآثوره ومعزية إلى أسبابها وأربابها

مما يستحب أن يدعو به المرء صباحا ومساء وبعقب كل صلاة

فمنها : دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر: قال ابن عباس رضى الله عنهما بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته ممسيا وهو فى بيت خالتى ميمونة ، فقام يصلى من الليل فلما صلى ركعتى الفجر قبل صلاة الصبح قال اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى وتجمع بها شملى وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتذكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها كل سوء . اللهم اعطنى إيمانا صادقا ويقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء مرافقة الأنبياء اللهم إنى أنزل بك حاجتى وإن ضعف رأيى وقلت حيلتى وكثر عملى وافتقرت إلى رحمتك فإسألك ياكافى الأمور ويشافى الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرنى من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور اللهم ماقصر عنه رأيى وضعف عنه عملى ولم تبلغه نيتى وأمنيتى من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فإنى أرغب إليك فيه وأسألكه يارب العالمين اللهم آجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسلما لأوليائك نحب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادى بعداوتك من خالفك من خلقك اللهم هذا الدعاء

وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان الذى لبس العز وقال به سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذى لا ينبغى التسبيح الا له سبحان ذى الفضل والنعم سبحان ذى العزة والكرم سبحان الذى أحصى كل شي بعلمه اللهم اجعل لى نورا فى قلبى ونورا فى عظامى ونورا من بين يدى ونورا من خلفى ونورا عن يمينى ونورا عن شمالى ونورا من فوقى ونورا من تحتى اللهم زدنى نورا واجعل لى نورا .

دعاء عائشة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها عليك بالجوامع الكوامل قولى اللهم إنى أسألك من الخير كله عاجله واجله ماعلمت منه ومالم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلمت منه ومالم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وماقرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير مما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا برحمتك ياأرحم الراحمين .

دعاء فاطمة رضى الله عنها

قال رسول الله صلى عليه وسلم "يافاطمه لايمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله ".

دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه

علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر الصديق رضى الله عنه أن يقول " اللهم إنى أسألك بحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نجيك وعيسى كلمتك وروحك وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وبكل وحى أوحيته القضاء قضيته أو سائل أعطيته أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأسألك بإسمك الذى أنزلته على موسى صلى الله عليه وسلم وأسألك باسمك الذى بثثت به أرزاق العباد وأسألك بإسمك الذى وضعته على الأرض فاستقرت وأسألك بإسم الذى وضعته على السموات فاستقرت وأسألك باسمك الذى وضعته على الجبال فرست وأسألك باسمك الذى استقل به عرشك وأسألك باسمك الطهر الطاهر الأحد الصمد المنزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأسألك باسمك الذى وضعته على النها فاستنار وعلى الليل فأظلم وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمعى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فإنه لا حول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين .

الأسلمى

دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه

روى أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يابريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيرا علمهن إياه ثم لم ينسهن إياه أبدا قال فقلت بلى يارسول الله قال قل " اللهم إنى ضعيف فى رضاك ضعفى وخذ إلى الخير بناصيتى واجعل الإسلام منتهى رضاى اللهم إنى ضعيف فقونى وإنى ذليل فأعزنى وإنى فقير فاغننى ياأرحم الراحمين "

دعاء قبيصة بن المخارق

إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى كلمات ينفعنى الله عزوجل بها فقد كبر سنى وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعملها فقال عليه السلام : "أما لدنياك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فإنك إذا قلتهن أمنت من الغم والجذام والبرص والفالج . وأما لآخرتك فقل اللهم اهدنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأنزل على من بركاتك ثم قال صلى الله عليه وسلم أما إنه إذا وفى بهن عبد يوم القيامة لم يدعهن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أيها شاء"

دعاء أبى الدرداء رضى الله عنه

قيل لأبى الدرداء رضى الله عنه قد احترقت دارك وكانت النار قد وقعت في محلته فقال ما كان الله ليفعل ذلك فقيل له ذلك ثلاثا وهو يقول : ما كان الله ليفعل ذلك ثم أتاه آت فقال يا أبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طفئت قال قد علمت ذلك فقيل له ما ندرى أى قوليك أعجب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من يقول هؤلاء الكلمات في ليل أو نهار لم يضره شيء وقد قلتهن وهى اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير .

من مقاصد الاستغفار قيمة النظافة

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) ﴾

كما أن الأسد هو وحده القادر على ترويض "الشبل" فإن القرآن الكريم هو وحده القادر على ترويض الإنسان .. بالإيمان ..

والآية الكريمة تحذير من تلويث البيئة بالذنوب .. والألفاظ النابية .. إلا فى حالة واحدة هى :

حالة المظلوم الذى يجأر بظلمه إرادة إنصافه..

النساء : ١٤٨

وإذ تركز الآية الكريمة محذرة من الجهر بالقول السيء ..

فلأن تنهى عن الجهر بالفعل السيء أولى ..

ثم يبلغ التحذير قمته حين تذكر الناس بأن الشيطان قد يغرينا بإظهار القبيح .. لكن يجب ألا يغيب عنا أننا فى نقطة الضوء .. عرايا : فالله يسمع أقوالنا .. ويعلم ما تكن صدورنا .

وإذن .. فنحن مأمورون بالاستغفار لأنفسنا ..

ثم للمؤمنين والمؤمنات .. لتظل الأرض صالحة كما خلقها الله تعالى ..

وقل للذين يتطوعون بنشر غسيلهم الوسخ :

استعينوا بالكتمان . حتى لا تجعلوا من عيوبكم التى تتفاخرون بها مادة حديث المضلين والحاقدين .

خصيصة المؤمن

ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان .. حتى من يظلمه !.

فقصاراك إذا ظلمت من أحد أن تقول :

فعل بى كذا وكذا ..

أما اللعن .. فلا .. تنقية للبيئة مما يعكر صفاءها ..

وإلا فلو لعنته .. فقد استوفيت حقك منه .

فان زدت .. صرت ظالما وقد كنت من قبل مظلوما !

وقد يسخر الله لك من يدافع عنك :

سمع ابن أبى وقاص رضى الله عنه رجلا يسب عليا . وطلحة والزبير رضى الله عنهم ..

فقال له : كف .. وإلا دعوت عليك !

فقال الرجل : تخاطبنى كأنك نبى !؟

فذهب سعد فتوضأ .. ثم قال : اللهم إن كان هذا سب ناسا سبقت لهم منك الحسنى .. فاجعله عبرة

ثم خرجت ناقة .. من دار .. ودخلت فى زحام الناس ثم أخذته بين أرجلها .. تضربه .. حتى مات !

◻ رجال : يحبون أن يتطهروا ★

ومما يعكر صفو البيئة : الغيبة :

ولما أدرك العالم قبح الغيبة قرر ألا يغتاب أحدا ..

بل أن بعضهم تبرع بعرضه وسمعته .. وتمنى أن لو اغتابه الناس جميعا .. ليضاف إليه من حسناتهم ..

لكنه يتنازل عن أمنيته .. لماذا ؟

لأنه إذا حققت الغيبة له ربحا .. عن طريق ما يضاف إليه من حسنات الآخرين .. فإنه لإيمانه العميق لا يحب أن يعصى الله تعالى .

قالت عائشة رضى الله عنها للرسول صلى الله عليه وسلم .

حسبك من صفية كذا { أنها قصيرة }

قال لها : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته : أى : لغيرته .

لم يجاملها : مع أنها أحب نسائه اليه ومع أن العيب معروف للجميع ولاحظ أنه عيب خلقى لا حيلة لها فيه !!

بل قد كان لهم فى حماية الآخرين من الغيبة أقوال ..

قال ابن أدهم لضيوفه الذين تسلوا بالغيبة حتى يأتيهم الطعام – قال لهم :

إعتاد الناس أن يأكلوا الخبز قبل اللحم !!

أما أنتم فأكلتم اللحم قبل الخبز !!

ولما ذهب الضيوف قال لهم :

لقد أكلتم لحم أخيكم ميتا .

وهكذا .

إذا كان من إكرام الضيف أن نحتفى به . .

فمن صور هذا الكرم أن ننصحه . . وإن كان فى النصح إحراج .لأن النتيجة طيبة وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . ونقول لمن نسى عيبه وشغل بعيب غيره لعله تاب من ذنبه هذا الذى تنشره . .

والحساب ليس إليك . . وإنما إلى خالقه سبحانه . . والذى قد يكون تاب عليه . . ثم لم يغفر ذنبك أنت ! ألا وإن عدو نفسه ذلك الذى يضيف حسناته إلى غيره .

كمن تنثر الدر فى حجور الآخرين . من النساء . ثم تواجه الحياة مجردة من حليتها التى تطوعت بها . . لغيرها !

صائمون عن الطعام . . وعن الكلام !!

قال التلميذ لأستاذه الشيخ : أوصنى فى رمضان . . فقال له : لقد أوصاك رمضان ! فقال وكيف قال الأستاذ : ألست تمتنع عن الأكل فى نهار رمضان ؟ قال : بلى

قال العالم :

فهو يقول لك : امتنع عن شهوات الدنيا :

ثم – ألست تقوم الليل ؟ قال بلى – فقال له إذن – فلا تنم إلا إذا غلبك النوم ألست تمتنع عن قول السوء ؟ قال : بلى

قال الشيخ : إذن فاستمر صامتا إلا إذا رأيت حرمة تنتهك . أو حقا مهضوما . . وعندئذ إذا فتكلم ؟

ميزان الاعتدال

ويمكن فى ضوء ذلك أن نقول :

إن الصيام هو الطبيب الذى جاء لينقذ الأمة من مشكلاتها وأمراضها الجسمية والنفسية والعقليه :

فهوالقيد المانع من الانطلاق مع تيار الشهوات . . شهوة البطن . . وشهوة اللسان لإقامة الحياة على ميزان الاعتدال .

جودة الفهم . وصحة الجسم . وقوة الحفظ ، وقلة النوم . وخفة النفس . ومن هنا قال العلماء :

أكبر الدواء : تقدير الغذاء .

وإلا فإن الاسترسال مع شهوة البطن يجعل من الطعام غاية بينما هو فى الواقع وسيلة . وعندما يصبح الطعام فى ذاته غاية فإن النهم به يقود إلى الهوان .

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله . . . وفرجك . . نالا منتهى الذم أجمعا

ذلك بأن النهم بالطعام يعنى إيثار الشهوة على الدين . . ومتى غلبت

الشهوة على الدين . . كان الحمق وكان السفه . لأن الأحمق حقا هو الذى يملا بطنه من كل ماوجد !.

وقد حذر حكماؤنا من هذا المصير الرعيب بالالتزام بالنهج الصارم الحازم : قال فرقد لأصحابه يوما إذا أكلتم فشدوا الأزر على أوساطكم وصغروا اللقم . . وشددوا المضغ ومصوا الماء مصا .

ولا يحل أحدكم إزاره . . فيتسع معه . وليأكل كل واحد من بين يديه .

توجيهات مهمة

ولقد كانت هذه التوجيهات العربية الإسلامية هى القاعده التى انطلق منها أطباء العالم بعد ذلك ليقرروا مايلى :

إنما يتولد أكثر العلل من زوائد الطعام . . وهو ماأشارت إليه السنة المطهره : بإدخال الطعام على الطعام وذلك بأن مراتب الطعام كا يقول إبن قيم الجوزية :

مرتبة الحاجة ثم مرتبة الكفاية ثم مرتبة الفضلة . .

وتجاوز المرتبتين الأوليين داخل بالمرء فى منطقة الخطر . . والتى جاء رمضان ليرده عنها . . حتى يكون التنافس بيننا فى الإنفاق . . وليس التنافس فى التبذير !

ويعنى التنافس فى الإنفاق أننا نحشر أنفسنا فى زمرة المتقين . . المتقين

الذين تنحصر آمالهم فى أمرين :

مغفرة الذنوب . .

ثم الفوز بجنة عرضها السموات والأرض

وهو ماأشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ﴾ آل عمران ١٣٣ .

ونحن مطالبون - باسم الإسلام - ألا نسد الطريق إلى المغفرة بالإسراف .

إنه لا قيمة للدنيا كلها إذا حرمنا المغفرة -- ولنا فى سليمان عليه السلام أسوة حسنة حين دعا ربه تعالى فقال فيما حكاه عنه القرآن : (رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص) .

لقد سأل ربه المغفرة أولا فحقق الله تعالى دعاءه . . فجاءته النعمة التى استقبلها نظيف القلب أبيض الصحيفة فقاد دنياه بدينه . . فكسب الاثنين معا !

أيام زمان :

ورحم الله أيام زمان :

عندما كان الانفاق فى رمضان شرعة للصائمين ومنهاجا . . عندما صاموا عن الطعام . . وعن فضول الكلام . . ثم كانوا فيه كرماء أتقياء . . يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

كانوا يشترون اللحم غالى الثمن .. ثم يبذلونه إذا نضج فى القدور .. على ما يقول شاعرهم :

نغالى اللحم للأضياف نيئا . . . ونرخصه إذا غلت القدور

عندما يبرأ المريض من علته نسميه .. ناقها .. أى قريب العهد بالمرض .. لم يرجع إليه كمال صحته وقوته ..

وفى هذه المرحلة لا يكون الناقه مطلق السراح يتناول من الطعام ما يشاء

لأن جيش المقاومة فى كيانه مشغول بتتبع الفلول الهاربة من جراثيم المرض .. ومن الحكمة ألا نشغل هذا الجيش بالقتال على جبهتين :

.. مع هذه البقايا ..

ثم مع الطعام الدسم الذى يحتاج فى هضمه الى عناء . ومن ثم .. فيجب أن يظل فى طعامه متخففا ..

ولعل فى سنته صلى الله عليه وسلم ما يشير إلى ذلك :

روى ابن ماجة عن أم المنذر بنت قيس الأنصارية قالت :

"دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعه على بن أبى طالب .. وعلى ناقه من مرض . ولنا دوالى معلقة .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يأكل منها . فتناول على ليأكل فقال النبى صلى الله عليه وسلم :"مه . ياعلى : من هذا فأصب .. فإنه أنفع لك .

لقد نهاه صلى الله عليه وسلم عن أكل الرطب .. مؤثرا أن يصيب من السلق والشعير من حيث كانا أنسب له وأنفع .. وأسهل فى الهضم . فرارا من الرطب الذى يشكل ثقلا على المعدة .. فيرتبك نظام الجسم الغذائى .

حاجات متجددة

وفى ضوء هذا الموقف . . ندرك أن حاجتنا إلى الطعام متجددة . . ولكن المشكله أننا نقدم رغبتنا على حاجتنا . . ومن ثم نسرف فى الطعام فنحرم من منفعته .

وقد حدد العلماء هذه الحاجة بألفين من السعرات الحرارية . . ومازادت على ذلك فهو المشكلة التى تتفاقم مع الأيام : فإنه فضلا عما ندفعه ثمنا لهذا الزائد . . فإنه يحتاج فى تمثيله إلى :

وقت زائد وطاقة زائدة ثم إلى تمريض . . ودواء . . نخفف به هذا الثقل

الضـاغط على القلب . الكبـد . وكل أجـهـزة الجـسم . ومن أجل ذلك جـاء رمضـان لنأخذ أنفسنا بقيمة الزهد . . والتى تعنى التضـحية ببعض رغـائب النفس . . إيثاراً للباقى على الفانى وكما قيل بحق :

إن الزهد هو : تضحية الإنسان بميوله ونزعاته الخاصة : وهو بلا مراء : غرة الأديان السماوية .

فنحن إذا راعينا مبدأ الزهد . والتشقف فى أسلوب حياتنا ارتقى بنا إلى حياة مليئة وفيرة . . لا حياة قاحلة مجدبة كتلك التى نحياها .

لأن تضحية الإنسان برغبته وميوله المباشرة فى سبيل تحقيق مبدأ سام لايجنى من وراءه فائدة شخصية . . يؤدى إلى النمو المطرد لعواطف الحب لدى الإنسان وتزايد ميوله الخيرة .

وإنى لأعتقد أن أهم مافى مكتشفات علم النفس الحديث هو إثباتها علميا أن سعادة الإنسان . . وقدرته على إدراك كنه نفسه لن يتأتيا بغير تضحية النفس فى سبيل الغير وتعويد المرء نفسه الخضوع لنظم خاصة أ.هـ .

أهمية الزهد

ونعـترف مع البـاحث ان علم النفس الحـديث قد . . اكتشف . . أهمـية قيمة التضحية . . أو الزهد .

ثم نؤكد أنه فعلا اكتشفها . . ولم يصنعها . .

ُلقد إكتشف موجودا . . ولم يوجد معدوما . .

وإنما الذى أوجده فهو الإسلام . . وعن طريق فريضة الصيام فالله تعالى يقول :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾البقرة :١٨٣

وأهم ما فى التقوى هو : قيمة الزهد . . والتضحية . . وبها تتراجع " الآنا " ليكون المسلم خادما لغيره . . مضحيا فى سبيله . .

إنه ينفق من مال الله فى السراء والضراء . . وثم و من أعصابه . . فيكظم غيظه . .

ثم يتوجه بعد ذلك كله بالإحسان إلى من أساء إليه . . وهذا الإحسان هو هدية رمضان . . فلنكن أهلا لهذا التكريم فى هذا الشهر العظيم .

صائمون عن الكلام

كان مسؤول كبير فى ديوان الملك عبدالعزيز يقول لموظفى مكتبه : لاتجب دعوة ! لماذا ؟

إنكم لستم تجارا فيسألكم الناس عن أسعار السوق .

ولستم مسافرين فيسألكم الناس عن العجائب :

كمـا وإنكم لسـتم فـقـهـاء . . فـتـعلمـوهـم . . وقـبل الأكل . . لن تذكروا مانشرت الجرائد . . ولكن ستتباهون بالأسرار . .

فلا تجيبوا الدعوه !

والموقف هنا نابع من مشكاة النبوه . . والتى نطالع من سناه قوله صلى الله عليه وسلم . . " أستعينوا على الحوائج بالكتمان . فإن لكل نعمة حاسدا ! "

وإذاكـانت (القلوب أوعيـة . والشـفـاه أقـفـالهـا . والألسن مـفـتـاحـهـا . . فليحفظ كل إنسان مفتاح سره) . . وإلا فليتحمل مسؤلية إذاعته :

إن بعض المتسرعين يضيق صدره بسره . . ثم ينطلق به لسانه . . فماذا يحدث ؟

يتزايد الكلام : ككرة الثلج : إنها تبنى نفسها وهى تتدحرج من القمة الى السفح . .

ذلك لانك قد تثق بصديق : فتفضى إليه بسرك . . وصديقك هذا أيضا له صديق يثق به . . فيفضى إليه به وهكذا . . يصير الأمر على مثل مافعل المدرس الذى أعطى أول التلاميذ بين يديه فكرة يعبر عنها باسلوبه . . ثم يعطيها لمن يليه أيضا ليعبرعنها بأسلوبه . . وهكذا . . فلما وصلت إلى أخر التلاميذ تغيرت الفكرة تماما !!

والجدير باللوم هنا هو أنت . . أنت الذى كان سرك فى صدرك أسيرك . . فلما تكلمت به سرت أسيره . .

أجل أنت الملوم . . فلا تحاول أن تعلق خطأك على شماعة الاخرين . .

وهذا ما عبر عنه الشاعر القائل :

تبيح بسرك ضيقا به . . . وتبغى لسرك من يحكم

وكتمانك السر ممن تخاف . . . ومن لاتخافه . . أحزم

وإذ ذاع سرك من مخبر . . . فأنت – وإن لمته – ألوم

وها هو ذا واحد ممن استودعوا الأسرار يدافع عن نفسه لأنه أذاع ما ائتمن عليه

وإذن ضاق صدرالمرء عن بعض سره . . . فألقاه فى صدره فصدرى أضيق

ومن لا منى فى أن أضيع سره . . . وضيعه قبلى فنو السر أحمق

ولقد وعى سلفنا الصالح هذه الحقيقة .. وفهموا ذلك الدرس المفيد حين تواصوا بكتمان الأسرار .. حتى قال عمرو بن العاص رضى الله عنه :

{ إن سرك هو دمك فى عروقك .. فلا تجره فى عروق غيرك .. وإلا تكون قد أرقته }!

بل إن كتمان الأسرار واحد من المقاييس التى توزن بها أقدار الرجال .

وقد قال الحكماء فى ذلك :

كتمان الأسرار يدل على جوهر الرجال :

وكما أنه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها .. فكذلك : لا خير فى إنسان لا يمسك سره .

فإذا كان الإنسان فى موقع قيادى .. وإذا تعلق الأمر بمصلحة الدولة العليا .. فإن حفظ السر يكون ضرورة ملحة .

ولقد كان الظاهر بيبرس يبدو مرهقا .. ثم يخرج من سراديب القاهرة قاصدا دمشق .. ثم يعود الى القاهرة قبل أن يعلم أحد فى دمشق برحيله ..

ورحم الله السادات :

لقد قال لنا فى اجتماع له قبيل حرب رمضان بأيام :

عودوا إلى قواعدكم .. وأخبروا الناس أن الطريق مسدود .. لقد فعلنا كل ما نستطيع .. ويبدو أنه لا حرب الآن .. ثم وبعد أيام .. بل ربما بعد ساعات دقت طبول الحرب وكان من أسباب انتصارنا هو هذا الدرس فى الكتمان !!

ورحم الله القائل :

يجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره .

ذلك بأن الإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز .. وما كتمه المرء من عدوه فلا يظهره لصديقه .. وكفى لذوى الألباب عبرا ما جربوا . ومن استودع حديثا فليستر .. ولا يكن مهتاكا ولا مشياعا .

لأن السر إنما سمى سرا .. لأنه لا يفشى .

وحدة الأديان

فى جانبها الانسانى

مدخل:

بدعوة كريمة من سعادة الأديب الأستاذ محمد خليفة المدير التنفيذى. لمركز زايد للتنسيق والمتابعة فى "أبو ظبى" كنت عضوا فى المؤتمر الدولى لحقوق الإنسان فى الفترة من ١٥-١٦ يوليو ٢٠٠٢

وقد أسهمت فيه بهذه الصفحات التاليات .. والتى اشتملت على زيادات غير ما سلمته لهيئة الاشراف .. بعدما استمعت إلى الزملاء من الخبراء . والذين توسعوا فيما عرضوا من حقائق ..

الأمر الذى أغرانى بالمزيد أثبته هنا اعتززا بإنسانية الإسلام التى يجب أن تظهر للناس .. فى زمان تدعو كل أمة إلى كتابها .

فطرة التدين

فطرة التدين مركوزة فى كيان الإنسان. ومن رحمة الله تعالى به أنه سبحانه لم يترك له أن يعبرعنها بغرائزه .. فهى ناشز ..

ولا بعقله .. فإنه عاجز ..

وإنما أرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين .. بدين واحد فى أصوله :

{ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه } الشورى : ١٣

وعن هذه الوحدة في الأصول يقول صلى الله علية وسلم :

{ الأنبياء إخوة لعلات :

أمهاتهم شتى . ودينهم واحد .

وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم :

لأنه لم يكن بينى وبينه نبى }(١)

والعَلات :

الزوجات المتعددات لرجل واحد .

ومعنى ذلك :

أن الأنبياء إخوة من أب واحد .

وأمهات مختلفة .

"البخارى" ج/٦/٣٥٤

أى شرائع مختلفة .

وعن هذه الوحدة فى الأصول يقول عز وجل :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) ﴾ الشعراء: ١٠٥-١٠٦

ففى بواكير الحياة .. يأمر نوح قومه بالتقوى .. لكنهم كذبوه ..

ولأن التقوى هى المحور الذى تدور عليه الرسالات كلها . فمن كذب الداعى إليها فقد كذب معه إخوته من الرسل الذين لم يأتوا بعد .. من حيث كان التكذيب رفضا للأصل الذى اجتمعوا عليه . وهو التقوى .

إتحاد القيم

وإذا تعددت الشرائع بتعدد الرسل الكرام .. فإن المنظومة الأخلاقية المنبثقة عن الأديان واحدة من مثل :

التسامح ..

التسامح .. الذى به نقبل "الآخر" . ونفسح له فى صدورنا موضعا .. حتى لا يكون هناك إكراه على رأى أودين ..

ذلك بأن الدين الحق هو الذى ينتصر بذاته : بطبيعة مبادئه ..

وإذن .. فليس فى حاجة إلى مدفع .. ولا إلى صاروخ .. لأن الدين

يعرض ولا يفرض . والمومن الحق :

سلاح من أسلحة القدر .. مجرد سبب .. يغير الله تعالى به ما يشاء من أوضاع الحياة :

{ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وأيدى المؤمنين }

واجب المتدينين

يقول الشيخ الباقورى تعليقا على هذا الحديث الشريف :

{ يطيب لمن يتأمل .. أن يتمنى .. أن يتمثل المتدينون فى سائر أرجاء الأرض أنهم إخوة فى الدين وإن اختلفت بهم شرائع رسلهم .

فإنهم إن تمثلوا هذا المعنى . وأدوا حق هذه القرابة الدينية .

فإنهم يبتعدون عن التعصب المهلك . والاستغلال الدنىء .

وسوف يجمع هذا المعنى الجليل كلمتهم على أن تسود فى الأرض كلمة السماء } [1]

ولكن أية سورة الشورى تؤكد ضرورة هذا الواجب .. كما يلى :

١- فأهل الكتب السماوية جبهة واحدة بهذه الأصول الواحدة . أو هكذا ينبغى أن يكون .

عن كتاب النموذج المصرى د . إدوارغالى /٢١-٢٢

٢- وهم يد على من سواهم من الوثنيين الذين تنكروا لهذه الأديان جميعا ..

وهو المعنى المشار إليه بقوله تعالى : {كبر على المشركين ما تدعوهم إليه}

٣- وإذن .. فنحن مطالبون بالتعاون على ما اتفقنا عليه .. على أن يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه .

٤- وهذاالتعاون ميسر .. متى خلصت النيات .. وتراجعت أحلام السيطرة ..

وقد حدث ما يؤكد ذلك فعلا :

كان "ارتست رينان" رمز التعصب .. ولكنه لما سمع جمال الدين الافغانى قال :

{ قلما استطاع أحد أن يؤثر في نفسى . مثلما أثر الأفغانى فيها .

إن قيمة الأديان منوطة بقدر ما يكون لمعتنقيها من تقدير }

اتساع مساحة الوفاق

وما دامت أصول الدين واحدة ..

ومنظومة الأخلاق أيضا واحدة ..

وما دام العدو مشتركا .. هو : الوثنية . فإن مساحة التعايش السلمي

واسعة بين أهل الأديان جميعا :

ولقد عبر عن هذه السعة : الشيخ الشعراوى وهو يشكر قداسه البابا شنودة والذى سأل عن الشيخ فى مرضه .. يقول الشعراوى :

{ إن هذا اللقاء تأخر كثيرا . وكان يجب أن يكون قبل هذا اليوم . إن مساحة الاتفاق بين المسلمين والمسيحيين واسعة . ويمكن أن نعمل جميعا من خلالها } !

محاذير على الطريق

هذه حقائق واقعية ..

ولكن هناك محاذير على الطريق . منها :

أن السياسة قد تتدخل لتفسد هذاالنبع الرائق .. وتشتت ذلك الشمل الجميع ..

الأمر الذى يفرض على أهل الأديان جميعا أن يلتزموا بعرض حقائق دينهم بتجرد . وموضوعية وبلا مقارنة أو مفاضلة بين دين ودين .. كما قال علماؤنا !

ونتيجة هذا العرض المحايد هي :

أن أهل الأديان جميعا يمكن أن يتعايشوا فى ظل من الحب والتسامح.

نفس المرجع والموضع

والتى يؤمن بها المجتمع الدولى المعاصر . فالمسيحية (دين المحبة)

يقولون إن الفهم الصحيح لأية ديانة ينبغي أن يكون من داخلها وبمنطقها . وطبق هذاالمنهج فإن أساس المسيحية الذي تبنى عليه جميع مبادئها وتعاليمها يتركز فى عبارة "الله محبة"]

ولذلك جاء فى الكتاب المقدس : [ومن لا يحب .. لم يعرف الله لأن الله محبة]

ولأن الله . سبحانه وتعالى هو الحب الكلى فقد خلق الإنسان على صورته سبحانه ومثاله .. لينعم بالحياة .. وليكون سيدا لهذا الكون .. وبهذة العاطفة الشريفة بمعناها المتراحب [تحب الرب إلهك وقريبك كنفسك]

جاء فى العهد القديم

[صرح الرب يسوع نفسه ان كل القاموس والأنبياء : يتوقف علي المحبة] [متى ٤٠ : ٢٢" ومرقس ١٢ : ٢٨ : ٣٤] وفى أنشودة الرسول بولس :

[يجعلها أعظم الفضائل أو النعم فى الحياة المسيحية : أعظم من التكلم بالألسنة . وبدون المحبة تكون النعم لا شىء والإيمان لا أثر له مالم يظهر نفسه بالمحبة . والمحبة هى أسمى تعبير عن الله وعلاقته بالجنس البشرى كذلك يجب أن تكون أسمى تعبير عن علاقة الإنسان بخالقه . وبأخيه الإنسان] (1)

[ولقد كمل المسيح شريعة القاموس حقا : لأنه جاء بشريعة الحب . وهى زيادة عليه . ان القاموس عهد على الإنسان بقضاء الواجب .. أما الحب فيزيد على الواجب .. ولا ينتظر الأمر . ولا ينتظر الجزاء .

الحب : لا يحسب بالحروف والشروط . والحب لا يعامل الناس بالصكوك والشهود ولكنه يفعل ما يطلب منه ويزيد عليه وهو مستريح إلى العطاء غير متطلع إلى الجزاء بهذه الشريعة : بشريعة الحب نقض السيد المسيح كل حرف فى شريعة الأشكال والظواهر . وبهذه الشريعه شريعة الحب رفع == صرحا يطاول السماء . وثبت له أساسا فى الأعماق " [٢]

السلام من ثمرات الحب

ومن ثمرات الحب : السلام . . . . إن معنى السلام فى شريعة المسيح عليه السلام أرحب من مجرد : عدم الحرب وإنما هو : سلام إيجابى . . ودود يمقت العنف والإرهاب . . منتهيا بالإنسان إلى كمال السعادة والهناء.

إنه مجموعة الخيرات التى يمنحها الله مقابل البراره . وهذه الخيرات هى إمتلاك أرض خصبة والأكل حتى الشبع والسكن فى الأمان والنوم بدون قلق والانتصار على الإعتداء والتكاثر ، وكل ذلك فى آخر الأمر . لأن الله منا (لاويين ١:٢٦ - ١٣)

فالسلام بعيدا عن أن يكون عدم الحرب فحسب فهو كمال السعادة

السلام هو جوهر الأديان . جاء فى جوهر (رومية / ٥) . . . . وكانت

"(١) قاموس الكتاب المقدس" ط . دار الثقافة . ٢٨٥

(٢)السيح للعقاد/ ١٣٢

هذه الكلمه السلام عبارة التحية عند اليهود وهم يقصدون بها الاطمئنان والسرور والراحة

كما يقصدون الأمن الخارجي والتحرر من الاستبداد السياسي .

وهو تحية المسيحيين أيضا :

ولكنهم يريدون به السلام الروحي العميق الذى اشتراه المسيح بدمه. سلاما لا تنيله الدني ولا تنزعه عن كل عواصفها وهو السلام الذى يملك على قلب المؤمن نتيجة مصالحته مع الله) (روميه / ٥)

الكفاح من أجل السلام

ولكن هذا المثل الأعلى سرعان ما يفسد فيحاول الملوك أن يحققوا السلام ، ليس كثمرة للبراره الإلهية بل على أساس عهود سياسية غالبا من غير إيمان إنه لسلوك خداع يبدو أن سنده كلمة ذات مظهر نبوى صادرة عن بعض رجال . لايعوذون سماع كلام الله قدر مبالاتهم بمن يلقمهم فى أفواههم (مبخا / ٣ : ٥) وهم فى حالة خطيئة تامه › يتجاسرون على إعلان سلام ثابت (روما ١٣ : ١٤)

إن الإنسان يرغب من أعمق كيانه فى السلام ولكنه غالبا ما يجهل طبيعة الخير الذى يصوب نحوه كل أمانيه وليست التى يتبعها لإقتناء السلام هى دائما سبل الله ولذا فلا بد من أن يتعلم من التاريخ المقدس فيما يكمن السعى للسلام الحقيقى ، وأن يصغى إلى الله يعلن عطية هذا السلام يسوع

المسيح .

جذور التسامح

وقيمة التسامح قديمة قدم الحياة التى واكبتها منذ بواكيرها الأولى : فقد قال هابيل لأخيه قابيل لما هدده بالقتل [لئن بسطت إلي يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك] ولكن التسامح انتصر فى النهاية على نزعة العدوان فى شخص قابيل الذى خسرت صفقته . . وصار فريسة لندم طال مداه بينما بدا هابيل رمزا للحب والعفو . . والتسامح . . على مدار الزمان . . .

إن التسامح هو الجانب العملى للحب والذى يمنح الإنسان انبساطا فى النفس . . وتفاؤلا فى نظراته إلى الحياة والأحياء وفى ظله يرى الإنسان :

يرى النهار . . معرضا للأزاهير

والليل معرضا للجواهر . .

ويرى الفقير عشه الصغير . . قصرا فسيح الأرجاء .

لاتقدر مساحته بما يشغل من مكان .

وإنما هو على قدر رحابة صدر الإنسان . .

ولو كان الجو مكفهرا : غائما . . ممطرا . . لكان التسامح هو الشمس

١ – دراسات فيالكتاب المقدس . تعريب اللاهون الكتابى / ٣٥ .

الطالعة .

ولو كانت الحياة من حوله جحيما . . وحرورا . . لكان هو النسمة المنعشة.

العسكريه الإسلامية
فى جانبها الإنسانى

تمهيد

يأمر الله عزوجل بالعدل . .

ولكن أحيانا يكون العدل صارما جازما . .

وإذن . . فنحن أحوج مانكون إلى الارتقاء إلى أفق الإحسان . نداوى به جراحا . . ونشفى به أحقادا . .

وساحات المعارك الملتهبة بالصراع . . فى حاجة إلى هذا العفو . . نرطب به جفاف الحياة . . وإذا يتخذها الملحدون فرصة للتشفى . . فإن الإسلام يجعل منها . . رحمة مهداة ونعمة مسداه.

إن الإسلام : دين السلام . .

لكنه السلام من مركز القوة . . لا من مركز الضعف .

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ الأنفال – ٦٠

وبعد هذه الآية مباشرة يقول عز وجل :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ الأنفال – ٦١

ويعنى ذلك :

التحريض على السلام . . ولكنه السلام المحروس بالقوة الرادعة .

وفى سورة محمد يقول عز وجل :

﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ محمد - ٣٥

ويعنى ذلك :

النهى عن الدعوة إلى السلم . . ونحن ضعفاء . . لأنه عندئذ يكون استسلاما . . لا سلاما .

التسامح

بين العلم والعمل

إذا كنت تسمع اليوم عن التسامح كلاما يقطر عسلا . . فإن الواقع حافل بما ينقض هذه الدعاوى !!

ولكنك فى الإسلام واجد هذه القيمة : نظريا وعمليا :

ففى هذه الأحاديث المشرفة . والتى أوصت بالإحسان . . وبالذات إلى المخالفين فى الدين . .

ثم جاء ت السنة النبوية تطبيقا عمليا . . لما وجهت إليه نظريا .

وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل :

فى السنه المطهرة :

تشهد نصوص السنة بإنسانية الإسلام التى أتم الله بها مابناه المرسلون من قبل . .

[إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق]

ومن شواهد السنة على إنسانية الإسلام وبالذات على ساحات المعارك – حيث يكون الامتحان عسيرا

يقول صلى الله عليه وسلم للمقاتلين :

[اغزوا بإسم الله وفى سبيل الله .

وقاتلوا من كفر بالله .

اغزوا . . ولاتغدروا ولا تغلو . . ولا تقتلووليدا] [١] .

إن باعث القتال فى دين المسلم ليس هو كفر الأعداء .

ولو كان كفرهم هو الباعث . . لقضى بقتل كل الأعداء . . وأباد خضراءهم . لأنهم جميعا كفار . .

وإنما كان الباعث هو :

درء المفاسد . . وجلب المصالح . .

(١) أخرجه أبو داود .

من أجل ذلك قال العزبن عبد السلام :

(إن الجهاد لا يتقرب به إلى الله . . من جهة كونه إفسادا

وإنما يتقرب به من جهة كونه وسيلة إلى درء المفاسد . وجلب المصالح)[١]

يقول مالك :

[لا أرى أن يقاتل المشركون حتى يدعوا ولايبيتوا حتى يدعوا .

وسواء غزوناهم نحن . أو أقبلوهم إلينا غزاة . . فدخلوا بلادنا . . لا نقاتلهم حتى ندعوهم] [٢]

من الذين قاتلهم الرسول ؟

يجيب د./حسين مؤنس [كل مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحروب التى تمت خلال القرن الهجرى الأول . لم يحارب المسلمون قوما . أو أمة أو شعبا . إنما حاربوا القوة التى تحول دون وصول الإسلام إلى الناس][٣]

طبيعة القتال فى الإسلام :

ويعنى ذلك أن حرب الإسلام دفاعية . . لاهجومية انتقامية :

يقول ابن تيمية فى رسالته عن القتال :

(١)" قواعد الأحكام " ج١ /١١٢ .
(٢) المدونه الكبرى /٢
(٣) الإسلام الفاتح /١٢.

(كانت سيرته صلى الله عليه وسلم :

أن كل من هادنه من الكفار لا يقاتله .

والمتواتر فى سيرته : أنه لم يبدأ أحدا من الكفار بقتال .

والنصارى هم الذين حاربوا الإسلام أولا .

وقتلوا من أسلم منهم بغيا وظلما][1]

ويقول الكاتب الهندى " شراغ على "

[كل حروب الرسول صلى الله عليه وسلم كانت دفاعية]

وعلى هذا الأساس كانت مذاهب الفقهاء :

وإذن فقد كان الجهاد فى الإسلام " ضرورة "

والضروره تقدر بقدرها . .

فإذا تم المقصود . . وكانت أمتنا فى حفظ ومنعة بحيث لا تطولها يد الأعداء . . فلا جهاد عندئذ . يقول إبن رشد فى مقدماته على " مدونة الإمام مالك "

---

(١) محر الغزالى مائة سؤال عن الإسلا ج١/١١١

[إذا حميت أطراف المسلمين . وسدت ثغورهم . . سقط فرض الجهاد عن سائر المسلمين][1]

يقول الشربيني في مغني المحتاج [2] [ويحصل فرض الكفايه بأن يشحن الإمام الثغور بمكافئين للكفار مع إحكام الحصون والخنادق]

من خصائص

الجندى المسلم

ولقد انطلق الجندى المسلم إلى ساحة الجهاد متسلحا أولا بهذه الخصائص الإنسانية . . والتي غزا بها الأرواح وفتح القلوب . . بهذه الخلائق التي كانت تحكم حركته . . ومنها :

١ – إنه يعرف الحق . . يتبعه وحين يذاد عنه . . يتمسك به .

٢ – وأن دينه دين " طيار " ينطلق في الآفاق بقوته الذاتية . . ولا إكراه فيه .

٣ – ثم هو مقاتل شريف :

شريف : يعاف العار حتى كأنه

هو الكفر يوم الروع – أودونه الكفر .

---

١ – مقدمه /٢٦٣

٢ – " ج٤ / ١١٢

إنه يخاف العار . . لكن لا يخاف الموت !

٤ – ثم إنه فارس : لا يواجه إلا العدوان . و في الفروسيه :

لايقتل طفلا . . في معركة ليس طرفا فيها . .

ولا امرأة . . إنه لا يقتلها . . وإنما يحميها . .

ولا شأن له بالراهب في صومعته :

فهو لا يقاتل إلا من يحمل السلاح :

أما الراهب فمعركتنا معه فكرية :

الرأى يواجه الرأى

والحجه تقرع الحجه .

إن الجندى المسلم مقاتل شريف . . يعلو فوق الأحقاد . . يحضه على المروءة عاملان :

دينه وفروسيته

ومعنى ذلك أن بالإنسان " جوعاونهما إلى أن يكون شيئا مذكورا . . وبخاصة على جبهة القتال التى تظهر فيها أقدار الرجال :

وقد يقاتل للمغنم . . أو للذكر . . أو ليرى مكانه . .

ولكن الرسـول صلى الله عليـه وسلم . . يرتفع بالمقـاتل المسلم . . إلى الأفق الأعلى ليصبح نسرا يتجاوز الحضيض . . فمكانه هناك فوق الذرى :

فى مجال التطبيق

يروى أنس رضى الله عنه . قـال : لم يغـز النبى صلى الله عليـه حـتى يصبح .

فإذا سمع أذانا . . أمسك .

وإذا لم يسمع أذانا أغار بعدما يصبح " [1]

لقد كان صلى الله عليه وسلم رحمة العالمين . .

كما شهدت بذلك سنته . . وسيرته . .

وقـد عرفنا من سنتـه صلى الله عليـه وسلم مـاأكد عمـوم هذه الرحمـة وعمقها . .

ويبقى أن نتأمل وقائع من سيرته الشريفة . . تبصرة وذكرى . .

ونختار من مواقفه صلى الله عليه وسلم بعضها :

(1) البخارى . كتاب الجهاد /٢٦١٢

فى غزوة بدر الكبرى

مدخل

لقد قتل في بدر عدد من صناديد قريش . . فى طليعتهم فرعون هذه الأمة : أبو جهل . .

ثم وقع فى الأسر منهم أربعة وسبعون . . وقد امر صلى الله عليه وسلم بنقل القتلى من مصارعهم التى كانوا بها . إلى " قليب " ببدر

وكان من سنته صلى الله عليه وسم فى مغازيه : إذا أمر بجيفة أمر بها فدفنت .

وأهم من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يسأل عن صاحبها إن كان مؤمنا أم كان كافرا !!

[وليعلم " المتحضرون " اليوم أنهم يدفنون رجالنا " أحياء " بينما نحن نكرمهم فندفن أمواتهم . . ولا نتركهم للسباع نهبا !

إنزال الناس منازلهم

لما عاد المجاهدون المسلمون من بدر منتصرين لقيهم المسلمون مهنئين .

فقال «سلمة» مهونا من شأن رجال قريش :

مالذى تهنؤننا به ؟

والله إن لقينا عجائز صلعا : كالبدن المعقلة فنحرناها!!

فتبسم صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أى : ابن أخى

أولئك الملأ !!

أى : أشرافهم . .

فخجل سلمة مما قال . . [1]

ثم فرض الله عليهم الذلة والمسكنه . . حين ذهبوا صاغرين إلى المدينة يحملون فداء أسراهم . وماكان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن تلطف بهم :

أ – امتن على الفقراء بالتنازل عن الفداء . . فأسلم معظمهم .

ب– كلف المتعلمين منهم . . بتعليم المسلمين مقابل الفداء .

ج – رفض صلى الله عليه وسلم " التمثيل : بهم

د – وكان له موقفه الجليل فى التعامل مع الجهاز الإعلامى المنهار .

ه – ثم للمرأه تكريم خاص . . إلا إذا كان لها فى المعركه دور

وذلك إجمال يحتاج إلى تفصيل :

راجع البداية والنهاية لإبن كثير ج٣ / ١٠٥

وصاة النبى ببعض القرشيين

لما حرض النبى المؤمنين على القتال > لم ينس وصيته بأناس خرجوا مكرهين إلى القتال ، وكانت لهم مواقف مشكورة في منع النبى وحمايته ،أومساع حميدة فى رد الظلم والطغيان فقال لأصحابه يومئذ ((إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا مكرهين لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى أباالبخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يقتله فإنه خرج مستكرها))

ولا تحسبن أن الرسول بهذه الوصاة أراد أن يحابى أهله وذوى قرباه. فقد كانت نفسه الشريفة أسمى من ذلك وأرفع ، وإنما ذكر لبنى هاشم منعهم له ثلاثة عشر عاما ، وانحيازهم لاجله فى الشعب ثلاثة أعوام حتى جهدوا وأكلوا ورق الشجر ، وذكر لعمه العباس موقفه المشرف فى بيعة العقبة الثانية وقوله للأنصار إن محمد . لا يزال فى عزة ومنعة من قومه ، وذكر لأبى البخترى أنه كان له ضلع كبيرفى نقض الصحيفه الظالمه . وهى حسنات لا ينساها الإسلام قط وقد كان من خلق رسول الله أن يرد الجميل بخير منه وليس أدل على ذلك من أن أبا البخترى ليس من بنى هاشم ، ولاتربطه بالنبى اقرابة قوية ، وإنما هو السمو الخلقى والإنسانى .[1]

وصاته بالأسارى

وصل الرسـول المدينه قبل قدوم الأسارى بيوم ، وكان قد فرقهم بين أصحابه وقال : (إستوصوا بهم خيرا) وهذا غاية الرحمة والإنسانية حيث أوصى بأناس طالما عذبوه وأصحابه ، ، وحاولوا قتلهم وإبعادهم عن دينهم ، وقد نفذ الصحابه وصية رسول الله بأمانة ، فكانوا سمحاء كرماء معهم .

الحرب الإعلامية

إذا كانت معارك الكافرين تنجلى عن الأشلاء والجماجم ، والضحايا . .

فإن معارك الإسلام كانت تنكشف عن دروس تصلح بها النفوس

ومن أهم المجالات التى بدت فيها إنسانية الإسلام وحكمته معا : المجال الإعلامى من الرجال والنساء

لقد كان للجبهة المشركة جهاز إعلامى فقال . مايزال يبث سمومه لتحقيق مآربه . .

ومن أركان هذا الإعلام المعادى :

١ – سهيل بن عمرو

٢– النضر بن الحارث.

٣ – أبو عزه الجمحى .

٤ – عصماء بنت مروان .

سهيل بن عمرو

فى معمعان المعارك يعمد كل طرف إلى تدمير بيت خصمه:

يركز على وسائل الاتصال ووسائل الإعلام إرادة تدميرها .

أما فى الإسلام . . فإن الأمر مختلف جدا :

كان سهيل بن عمر جهازا إعلاميا بما كان ينشد من أشعارا . وما يبث من أفكار .

فلما أخذ أسيرا كان المتوقع أن ينكل به تنكيلا جزاء ماقدمته يداه لكن الأمر جاء على غير مايشتهى المنجمون .!

الرحمة

فى ضمير الأمه

لما علمت أم المؤمنين " سودة بنت زمعه " بقدوم الآسارى رجعت إلى بيتها . ورسول الله فيه .

فإذا سهيل بن عمرو مجموعة يداه إلى عنقه بحبل .

فما ملكت نفسها حين رأته كذلك أن قالت :

أى : أبا يزيد :

ألا متم كراما؟!!

قالت فوالله مانبهني إلا قول رسول الله من البيت :

ياسودة

أعلى الله وعلى رسوله تحرضين ؟!!رأيت أبا زيدمجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ماقلت فأعتذرت.

فقبل صلى الله عليه وسلم إعتذارها .

لقد نشأت عن سهيل وبسببه مشكلة أسريه : فأم المؤمنين سودة بحكم فطرتها الخيره . . ينتابها الفزع لمشهد عزيز قوم ذل . .

ومع بعد المسافة بين المؤمن والكافر . . إلا أن ذلك لا يفرغ القلب من مشاعر الإشفاق . . وإذا كان الزوج المسلم يحب زوجته التائبة مع الفاروق الهائل في العقيدة . فإن أم المؤمنين " سودة" رضي الله عنها تحمل روح الإسلام المسامح هذه . . فلا يمحو اختلاف العقيدة مشاعر الإشفاق على رجل عزيز في قومه يذل الآن . . دون أن يكون ذلك . هنا في العقيدة أو مساومة عليها .

إن فطرتها العربية الأبيه غلبتها . . فعبرت عن إنسانيتها بهذا المنطق الذى إعتبره صلى الله عليه وسلم قد تجاوز حدود المعقول . . وأو شك أن يكون تحريضا على المسلمين . .

وسرعان ماقبل اعتذارها :

أولا : إيمانا منه صلى الله عليه وسلم بحسن نيتها . .

وثانيا : استجابة لفطرته المائلة إلى الرحمة حتى بعدوه . . الذى مازال صوته يدوى بالتحايل عليه وعلى الإسلام .

موقف عمر

قال عمر رضى الله عنه :

يارسول الله

انزع ثنيتى "سهل" فيدلع [يخرج] لسانه فلا يقوم عليك خطيبا فى موطن أبدا]

فقال صلى الله عليه وسلم :

لا أمثل . فيمثل الله بى . . وإن كنت نبيا .

وعسى أن يقوم مقاما ماتذمه فيه]

ثم حقق الله تعالى نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سهيل :

فإنه لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أهل مكة أن يرتدوا قام سهيل خطيبا . فقال بعد أن حمد لله وأثنى عليه وصلى الله على رسوله.

ايها الناس :

من كان يعبد محمد فإن محمدا قد مات

ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ..}

ثم مضي يدعو إلي الله علي بصيرة . .

النضر بن الحارث

وكان هجاء . . يروي الاساطير زاعما أنها خير مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

قتلة المقداد بن عمرو بأمره صلى الله عليه وسلم .

أبو عزه الجمحى

كان شاعرا شديد الإيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم . ولما قع فى الأسر .

رجا الرسول صلى الله عليه وسلم . أن يعفو عنه فعفا عنه .

عصماء بنت مروان

كانت عصماء بنت مروان تؤذى الرسول وتحرض عليه وتعيب الإسلام .

فنذر " عمير بن عدى " ليقتلنها . .

وفعلا قتلها

ونظر إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال :

أقتلت ابنة مروان . قال : نعم يارسول الله

فقال :

نصرت الله ورسوله ياعمير ؟

إن الرسول هنا لم يأمر " عميرا " بقتلها :

لكنه لم يعترض عليه

لقد خرجت المرأه من قاعدة "الرحمة "

من حيث كان لسانها سلاحا فى يد الأعداء . . فكان لا بد من هذا الجزاء

منع قتل من خرج للقتال مكرها

روى ابن إسحق عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لصاحبه " إنى عرفت أن رجالا من بنى هاشم . وغيرهم قد خرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى أحدا من بنى هاشم فلا يقتله "

إمتاع الأسماع للقريزى / ج١ /١٠١

ثم سمى رجالا منهم العباس بن عبد المطلب .

وانفعل " أبو حذيفة بن عتبه قائلا أتقتل آباءنا وأبناءنا . وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف .

ولم يملك القائد الأعلى لأبى حذيفة إلا أن يوسط عمر رضى الله عنه فى تهدئة مشاعر أبى حذيفة بهذا المنطق الودود .

يا أبا حفص : أضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟!!

ولم تكن تلك الشفاعة من الرسول تعصبا قبليا . . وإنما هو التقدير لرجل كان له دور سرى لمصلحة الدعوة وأراد صلى الله عليه وسلم أن يرد له الجميل . .

ومما يؤكد ذلك موقفه من أنه :

لما قتل النضر ين الحارث رثته أخته " قتيلة بنت الحارث . . وكان مما أنشدته :

أمحمد ياخير ضنئ [1] كريمة . . . من قومها والفحل فحل معرق ؟

ما كان ضرك لو مننت وربما . . . من الفتى وهو المغيظ المخنور

والنضر أقرب من أسرت قرابه . . . وأحقهم إن كان عتق يعتق

---

١ – الضنئ : الولد

قال ابن هشام :

يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه هذا الشعر قال :

(لو بلغنى هذا قبل قتله . لمننت عليه) [1]

لقد حركت المرأه فى قلبه الكبير الشجن . . إلى الحد الذى لو استقبل فيه مااستدبر . . ماوسعه إلا العفو عنه . . مؤكدا بذلك رحابة صدره وأن بعد الشقة بين المؤمن والكافر . . لاتلغى مشاعر الرحمة . . ولا يقطع خط الرجعه أمام كل راغب فى أن يفئ إلى ظل الإسلام .

رعاية شعور المهزوم

وفى غزوة خيبر كانت "صفية بنت حيى" زعيم اليهود من بين السبايا . .

وكان من الممكن أن يصفى المنتصر حسابه اليوم مع من لاقى منه صنوف الأذى .

لكن المنتصر وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يراعى مشاعر العدو وهو فى أضعف حالاته . . حتى ولو كان من نسل زعيم اليهود . .

ومن موقفه مع صفية يتضح هذا المعنى :

١- البداية والنهاية ج٣/٣٠

إنسانيه ليس وراءها وراء

مر بلال بصفية بنت حيى هى وابنة عم لها على جثث قومها من اليهود فى خيبر وكانت من سباياها فإنهارت إبنة عمها . . وثبتت هى . .

وعاتب صلى الله عليه وسلم بلالا قائلا :

أنزعت منك الرحمة يابلال .

حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟!!

وبعد أن كانت الأسيرة الكسيرة إنضمت إلى كوكبة إمهات المؤمنين

لقد كان صلى الله عليه وسلم – بعد غزوة بدر يأمر بدفن الجثة . . ثم لا يسأل عنها : أجثة مؤمن . . أم كافر؟ كما أشرنا آنفا

وكان كذلك فى تقديرة لمشاعر المرأة : فكما أنه – وبعد أحد – يمنع عمته صفية من رؤية جثة اخيها حمزة . . فهو هنا وبنفس القوة يصون مشاعر ابنة زعيم اليهود عن رؤية جثث قومها !

طنين المستشرقين بشأن أسارى بدر

{يقف غير واحدمن المستشرقين والمبشرين عند أسارى بدروقتل أسيرين من سبعين أسيرا ، ويزعمون زورا وكذبا تعطش الدين للدماء ويرون أنه كان من الأحسن أن يمن المسلمون على الأسرى ويحسبهم ما نالوا من غنيمة ، قالوا هذا وتغافلوا عما قام به هذان القتيلان ، وما قام به معظم هؤلاء الأسرى من تعذيب وإيذاء للنبى والمسلمين وصدهم الناس عن الإسلام ثلاثة عشر عاما ولم يكفهم مافعوا بالمسلمين بمكة ، فها هم أولاء لا يزالون يحاربون الإسلام والمسلمين ، ويحاولون القضاء في موطنهم الجديد وهانحن قد سمعنا عتاب الله للمسلمين أن قبلوا الفداء ، ولم يثخنوا فيهم قتلا ، ولو أنهم فعلو ماعوتبوا، ولحظوا بالثناء من رب العالمين .

يقولون هذا ويتجاهلون ماقام به المسيحيون باسم الصليب تجاه المسلمين من حروب دامية دامت حقبا من الزمان ، وحاولوا أن يغتصبوا جزءا عزيزا من أرض المسلمين فى فلسطين ، بل وأن يقضوا على الإسلام والمسلمين ويتناسوا أنه ماقيض الله للإسلام والمسلمين من أمثال صلاح الدين الأيوبى البطل المسلم العربى فهزمهم وألقى بهم فى البحر ، وطردهم شر طردة !! ويتناسون ماقام به المسيحيون ضد المسلمين فى الأندلس ، وأيضا المجازر الكبرى التى قامت باسم المسيحية تجاه إخوانهم المسيحيين مثل مجزرة (سان بارتملى) هذة المجزرة التى تعتبر سبه فى تاريخ المسيحية لا شئ مثلها قط فى تاريخ الإسلام ، هذه المجزره التى دبرت بليل وقام فيها

عن السيرة للمرجوم د /أبو شهبة

الكاثوليك يذبحون البروتستيين فى باريس وفى فرنسا غدرا وغيلة ، بل فى أحط صور الغدر ، وأبشع صور الغيلة .

وتجاهلوا أيضا ما حدث فى أثناء الثوره الفرنسية والثورات المختلفة التى وقعت وتقع فى أمم أوروبا المختلفة . من تقتيل وتذبيح للآلاف ، وما قامت وتقوم به الدول المسيحية فى العصر الحديث باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمونها على كره من أهلها قصد استغلال خيراتها ، وامتصاص دماء بنيها ، وما رأيهم فيما تقوم به الدول المتحضرة اليوم فى الشرق والغرب ، وما جرى فى الحربين العالميتين الأولى والثانيه من قتل الأسارى قتلا جماعيا والتنكيل تنكيلا جاوز حدود الإنسانية فلماذا أغمضوا عن هذا عيونهم ، وأصموا أذانهم ؟

وفتحوها لقتل أسيرين حفلت حياتها بالمساوئ ، والجرائم تجاه النبى والمسلمين ؟ فأين هذا مما صنعه المسلمون مع الأسارى فى بدر من إحسان إليهم حسب وصاة نبيهم لهم حتى كانوا يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب ؟! .

إن ماجر ى فى بدر وغير بدر فى مغازيهم وفتوحاتهم إنما هى رحمة وعدل من آثار هذا الدين : دين الرحمة والعدل ، ولقد لهج بذلك رجل لا يمت إلى الإسلام بصلة ، وهو المؤرخ الكبير (غوستاف لوبون) حيث قال : «ماعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب .

وإليكم أيها السادة المستشرقون والمبشرون هذه الحكمه من كان بيته من زجاج فلا يرشق بيوت الناس بالحجارة]

فقد أمن الصليبيون سكان بيت المقدس المسلمين على أرواحهم وأموالهم إذا رفعوا الراية البيضاء فوق المسجد الأقصى . فاحتشد فيه المسلمون مخدوعين بهذا العهد ..

فلما دخل الصليبيون بيت المقدس ذبحوا كل من التجأ الى المسجد الأقصا . تذبيحا عاما . وقد بلغ من ذبحوا فيه سبعين ألفا من العلماء والزهاد والنساء والأطفال .

حتى أن كاتبا صليبيا رفع البشارة بهذا الفتح المبين إلى البابا وقال فيه مباهيا : لقد سالت الدماء فى الشوارع حتى كان فرسان الصليبيين يخوضون فى الدماء الى قوائم خيولهم .

وإننا لا نقول اليوم هذا للمفاخرة والمباهاة بتاريخ فتوحاتنا وقوادنا وجيوشنا . التى قال فيها "لوبون" : "ما عرف التاريخ فاتحا أرحم ولا أعدل من العرب " .

وانما نقول هذا لننبه الى أننا كنا أرحم بالإنسانية وأبر بها من هؤلاء الغربيين وهم فى القرن العشرين وإلى أن هؤلاء الغربيين حين يتحدثون الينا عن حقوق الانسان . ويوم الأطفال . ويوم الأمهات . تدليلا منهم على سمو حضارتهم انما لا يخدعوننا نحن . بل يخدعون السذج السخفاء . وفاقدى

الثقة بأمتهم وتاريخهم ممن يزعمون أنهم أبناؤنا ومثقفونا" .

فاذا لم تنجح الكلمة الطيبة فى استنقاذ أناس من ضلالهم .. وأصروا واستكبروا استكبارا دفعهم الى حمل السلاح فإنه من الحكمة والموعظة الحسنة أيضا أن يكون السلاح هو الرد الطبيعى .. ولا يفل الحديد الا الحديد !! يقول المرحوم الأستاذ البهى الخولى : "لابد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها . وتصرف اليها قوتها وعلمها . فما هذه الرسالة ؟

هل هى اتساع الملك . وكثرة المستعمرات . والاستيلاء على أراضى الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك أن تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد فى الأرض رسالة مجيدة ؟ ..

إن علم الله أرفع من يسخر لمثل هذه المخازى والمآسى . وأن الله عز وجل أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الآثمة ..

ان الغاية الفاضلة التى يجب أن تعيش لها الدولة الفاضلة .. وتعمل جاهدة لتحقيقها غير ناظرة الى شيء سواها هى :

توحيد الله عز وجل . وجمع الناس علي الايمان به وحده . وتطهير الأرض من كل رجس وشرك . حتى تكون كلمة الله هى العليا . ويكون الدين كله لله . . يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل . .

يجب إقامة النظم السياسية والتشريعية . والعملية التى تكفل استقرار الناس فى هذه الغاية.

فإن إستقر ذلك بالتى هى أحسن فيها ونعمت .

وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية . . فلنتذرع بالتى هى أحسن أيضا . . وليس أحسن فى هذه الحاله من القوة المسلحة .

فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا : له مالنا . وعليه ماعلينا . وإلا فلن تكف عن أعدا ء الله . حتى تطهر الأرض من رجسهم .

تلك هى الغاية التى يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة .

وقد أثنى الله على المسلمين . وشهد لهم أنهم عاشوا لها .

فقال عز شأنه :« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » }.

من تلبيسات اليهود

فى اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٨٨ . قال وزير خارجية اسرائيل :لن أحتكم إلى التوراة .. ولا إلى الإنجيل .ولكنى سأحتكم الى القرآن نفسه .. والذى قال :

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ البقرة – ٤٧

ولقد استمرت حملة التلبيس أو التدليس ..

حتى قال "بيجين" وهو يزور الأهرام وفى حضور الرئيس الراحل أنور السادات

قال بيجن :

(ليت أحدا من أجدادى اليوم كان حيا ليرى هذه الأهرامات التى بنوها)

وإذا لم تستح .. فعل ما شئت !!

منشأ هذه الانسانية

ومنشأ هذه الخلال الرفيعة .. وبخاصة والحرب دائرة ..

هو قوله تعالى :

{ وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون } سورة ن

فالرسول صلى الله عليه وسلم مزود بالخلق العظيم .. وعل أساس من هذا الخلق العظيم .. وانطلاقا منه .. يتحدد مصير المعركة :

{ فستبصر ويبصرون }

سوف تتجلى المعركة غدا .. لترى .. ويرى أعداؤك كيف دارت عليهم الدائرة .. لا بسبب من السلاح المادى وحده .

وإنما معه .. وقبله .. وفوقه :

هذا الخلق الغظيم الذى به كان نصر الله والفتح .

والفضل ما شهدت به الخصوم

{ ضرب المؤرخ (أرنولد) كثيرا من الأمثلة التى تبن تسامح المسلمين ثم قال : ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون الى العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة واستمر فى الأجيال المتعاقبة مستطيع أن نتخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى عنقت الاسلام انما فعلت ذلك عن اختيار وإردة حرة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح .

ويصف (أرنولد) موقف المجتمع الاسلامى من المسيحيين فيقول : ولما

كان المسيحيون يعيشون فى مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذى منحهم حرية التفكير الدينى تمتعوا وخاصة فى المدن بحالة من الرفاهية والرخاء فى الأيام الأولى من الخلافة .

ويعترف (أرنولد) فى موضع آخر من كتابه بتسامح الخلفاء المسلمين فيقول : لم نسمع آية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام أو عن أى اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحى . ولو اختار الخلفاء تنفيذ احدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرد ديناند وايزابلا دين الاسلام من أسبانيا أو التى جعلت لويس الرابع عشر يعد المذهب البروتستنتى مذهبا يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين عن انجلترا مدة ثلثمائة وخمسين سنة . وكانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت تماما عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحائه أحد يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين .

ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم .

ضرب الخليفة عمر بن الخطاب أمثلة كثيرة على تسامحه مع أهل الذمة فقد أمر أن يعطى قوم مجذومون من النصارى . من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت وهو لا ينسى الذميين حتى فى أخرى وصاياه فقد أوصى بأن "

يوفى لهم بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم "

ولدينا وثيقة هامة تدل على تسامح العرب الفاتحين كتبها بطريق النساطرة الى نصارى العراق وفارس جاء فيها : " أن العرب الذين منحهم الله زمام العالم فى هذه الآونة أصبحوا فى صفنا كما تعلمون وهم لا يضطهدون المسيحيين بل يمتدحون عقيدتنا ويحترمون قسيسينا وقديسينا ويساعدون كنائسنا وهياكلنا " .

وسار ولاة الخليفة عثمان بن عفان على سيرة ولاة عمر فى التسامح مع أهل الذمة فقد كان الوليد بن عقبة والى العراق يدخل النصارى المسجد ويجرى عليهم الأرزاق كل شهر كما تمتع أهل الذمة فى خلافة على بن أبى طالب بالمعاملة الحسنة فقد أعطى النصارى من العطاء وساواهم بالعرب والموالى وكان يوصى عماله فى كل مكان بأهل الذمة خيرا وأمر عاملا له بحفر نهر لأهل الذمة يروون منه أرضهم .

افتتح معاوية بن أبى سفيان حين تولى الخلافة عهدا جديدا من التسامح مع أهل الذمة فقد عين لولده يزيد مربيا نصرانيا وبالتالى كلف يزيد كاهنا مسيحيا بتثقيف ولده خالد . وطالما شغل المسيحيون مناصب كبيرة فى بلاط الخليفة مثل الأخطل وهو عربى نصرانى وكان شاعر بلاط عبد الملك بن مروان ومثل أبى القديس يوحنا الدمشقى مستشار عبد الملك . وكان الأخطل يدخل المسجد فيقف المسلمون له اجلالا . واختار عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة الرها يدعى (أثناس) مؤدبا لأخيه عبد العزيز . وقد رافق أثناس هذا

تلميذه الى مصر عندما عين واليا عليها وهناك جمع ثروة طائلة .

كذلك امتاز عهد الخلايفة الأموى عمر بن عبد العزيز بالتسامح مع أهل الذمة فقد أمر ولاته الا يهدموا كنيسة أو بيعجة أو بيت زار . صولح أهل الذمة عليه . وكتب عمر الى عامله بالكوفجة أن يعطى أهل الذمة ما بقى من خراج الكوفجة فيسدد ديونهم ويساعد من أراد الزواج منهم ثم ختم رسالته بقوله : " قو أهل الذمة فاننا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين "

وقد كان فى خدمة الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ)

إخوان مسيحيين بلغا منزلة سامية عند الخليفة أحدهما (سلمويه) وكان يشغل منصبا قريب الشبه من منصب الوزير الآن وكانت الوثائق الرسمية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها . والآخر (إبراهيم) وكان يحتفظ بخاتم الخليفة كما عهد اليه بخزائن بيوت الأموال فى البلاد . وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد الى ابراهيم أنه عادة فى مرضه الأخير وغمره الحزن عند وفاته وانه أمر فى يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه الى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية فى خشوع مهيب .

وفى عهد الخليفة العباسى المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩ ه) كان عمر بن يوسف من إبرز ولاته وكان مسيحيا ونال ثقة الخليفة .

وعهد الموفق أخى الخليفة العباسى المعتمد أمر تنظيم الجيش الى مسيحى يدعى اسرائيل واتخذ ابن المعتضد نصرانيا آخر كاتبا له وهو ملك

بن الوليد . كما تولى نصرانى آخر فى عهد المقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ ه) أمر ديوان الجيش . وكان نصر بن هارون كبير وزراء عضد الدولة البويهى مسيحيا .

وقد ظلمت دواوين الحكومة وخاصة ديوان الخراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس . وظلت الحال فى مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدا حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكارا يكاد يكون تاما . وكثيرا ما جمع الأطباء المسيحيون بوجه خاص ثروات ضخمة ولقوا تكريما كبيرا فى بيوت العظماء فقد بلغ إيراد جبريل طبيب هارون الرشيد وهو مسيحى ثمانمائة ألف وعشرين درهم فى السنة مقابل عنايته بصحة الخليفة . وكان المسيحيون عامة يجمعون أموالا وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة .

وفى الأندلس أدت سياسة التسامح الدينى التى سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعايتها المسيحيين فى أسبانيا وحريةالاختلاط بين المتدينين قد أدت الى شئ من التجانس والتماثل بين الجماعتين . وقد كثر التصاهر بينهم حتى أن (أزيدور) الذى شدد النكير على الفاتحين المسلمين قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من أرملة الملك (لذريق) دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها هذا العمل . هذا الى أن كثيرا من المسيحيين قد تسموا بأسماد عربية وقلدوا جيرانهم المسلمين فى إقامة بعض النظم الدينية فاختتن كثير منهم وساروا وفق رسوم المسلمين فى أمور

الطعام والشراب [1]

أطلق لفظ (مستعربين) على الأسبان المسيحيين الذين عاشوا فى ظل العرب المسلمين وسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية فى جميع أرجاء البلاد حتى أن لغة الدين المسيحى قد تطرق إليها الإهمال والنسيان شيئا فشيئا . بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية الناس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة . وبلغت اللغة اللاتينية فى بعض أجزاء أسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد أصبح من الضرورى.

أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل إستعمالها على المسيحين .

وبينما كانت الآداب العربية التى اذدهرت فى ذلك العصر يستولى على الأفئدة بجمالها ، ويقبل الناس على دراستها فى بحماسة وشغف ، نجد أن أولئك الذين رغبوا فى دراسة الأدب المسيحى لم يعد فى متناول ايديهم المادة التى كانت تستخدم فى إقليم القوط المتبربرين ، ولم يجدوا إلا فى شئ من الصعوبة للمعلمين الذين يستطيعون أن يبدأوا معهم نوعا من الدراسة لا يرتفع كثيرا حتى عن المستوى المنحط من الثقافة .

ونتيجة الاتصال الوثيق بين المسلمين والمسيحين نرى الفار ALVAR المسيحى الذى إشتهر بتعصبه ضد الإسلام يقرر أن القآن قد صيغ فى مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل ، حتى حتى أن المسيحيين لم يسعهم الا قرائته

(الدعوة الى الاسلام) .

والاعجاب به . ولما كان أشهر رجال الدين المسيحى قد تأثروا تأثرا عميقا من جراء إتصالهم المسلمين ، جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام فى مسيحى أوربا كان عظيما . وليس أدل على صحة هذا القول من التفكير فى عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ٩٣٦ م للبحث فى أحى وإلقائه .

فتحت الدولة العثمانية ، وهى دولة إسلامية ، كثيرا من الأقطار الأوربية التى يدين معظم أهلها بالدين المسيحى . وقد عاش الرعايا المسيحيون إلى جانب الحكام العثمانين المسلمين فى المجتمع واحد تظللهم سماء الحرية والتعاون . وأعترف (أرنولد) بهذه الحقائق فقال : وفيما وصل إلينا من الأخبار التى تتعلق بالصلات الإجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين ، نجد بعض ما يرشدنا إلى الحالة التى ظفرت فيها المؤثرات الإسلامية تدريجا بالداخلين فى الدين حتى الأهالى المسيحين ، الأمر الذى يرجع إلى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية .

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية تزوج بناتها من المسلمين ولم تعترض النساء المسيحيات ولا الأطفال من الذكور الدين نشأوا عن هذا الزواج المختلط تربية إسلامية ، أما البنات فقد مسح لهن أن يتبعن دين أمهاتهم وأعتنقت معظم الزوجات الاسلام . وكذلك يتضح هذا التعاون الطيب بين أفراد الديانتين بما أبداه المسلمون فى أعياد من النصارى .

كانت الأطار المسيحية الخاضعة للحكم العثمانى أحسن حالا وأكثر رخاء من معظم جهات أوروبا المسيحية ، السكان المسيحين الذين إشتغلوا بزراعة الأرض

ينعمون كبير من الحرية الشخصية ، كما كانوا ينعمون بثمار جهوها من الحكام المسيحيين .

من إنسانيات صلاح الدين

تمهيد

يقول الإمام محمد عبده { إذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لأتباع دين فى بيان أصوله .. فليؤخذ فى ذلك : يقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين . ومن تلقوه على سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه }[1]

ومن إنسانيات صلاح الدين :

بعد انتهائه من تحقيق النصر فى المعركة .. علم بمرض القائد الصليبى .. رتشارد .. المعروف بقلب الأسد .

وكيف تعامل القائد المنتصر .. مع الأسد الجريح .. الكسيح ؟!

لقد أرسل إليه رسولا .. يستفسر عن صحته .. فلما علم أنه محموم .. وأنه فى حاجة إلى الماء البارد والفاكهة .. أرسل إليه فأمده .. بالكمثرى .. والتفاح والماء البارد .

ويذكرنا هذا الموقف الإنسانى .. بما فعله فاتح الأندلس "عبد الرحمن الثالث"

فماذا فعل مع خصمه العنيد ؟

لقد كان غريمه "أمير ليون" من أشد الناس عليه .

وذات يوم .. جاءه رسوله وفى فترة الهدنة . يرجوه أن يسمح للأمير بزيارة قرطبة . ليستشير أطباءها فى مرض الصدر الذى ألم به .

فرحب عبد الرحمن برسول عدوه فى بشر .. حين خف لاستقبال الوفد ..

ثم غمر الوفد بالهدايا ..

وأثناء ذلك .. كان مستشارو "عبد الرحمن" الثالث يراقبون ما يحدث غاضبين عاتبين على قائدهم نبلا لا يستأهله الوفد القادم ؟!

ثم قالوا :

إنه يستشفى لدنيا اليوم فى قرطبه .. ليشن علينا الحرب إذا عوفى وصح!!

وصاح فيهم عبد الرحمن :

دعوه يصح .. فإنا لا ننازل إلا الأصحاء !!

وتذكرنا هذه الأريحية بما فعله الإمام على رضى الله عنه فى موقف من مواقف "صفين"

فقد احتل الخصوم منابع الماء ..

ولكن الإمام استبسل .. واستعاد موارد الماء .. وهب مستشاروه وقالوا له :

امنعهم الماء .. كما منعونا .. ولكن الإمام يرفض هذا الاقتراح قائلا لأهل الشام :

تقدموا .. فإن الماء للجميع

وما كان لهذا الجميل أن يذهب سوى ..

لقد انتزع اعتراف الخصوم بنبل المسلمين انتزاعا حتى قالت زوجة ملك فرنسا يوما :

إن صلاح الدين بطل ..

ولم تكن تعنى بطولته العسكرية .. بقدر ما كانت تقصد بطولته الإنسانية

وبعد انتصار المسلمين فى "حطين"

{ أمر السلطان – صلاح الدين – بضرب مخيم عظيم .

وجلس فيه على سرير المملكة .

وعن يمينه أسرة .. وعن يساره مثلها .. ثم جاء بملوكهم :

فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم :

فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه .

وبقيتهم عن شماله .

ثم جيء إلى السلطان بشراب مثلوج . فشرب . ثم ناول الملك فشرب }[1]

القائد .. الوالد -

ومعروف أن دقيقة واحدة .. قد تقلب ميزان المعركة رأسا على عقب ..

ومع ذلك . أو قف صلاح الدين الحرب حتى يعثر على ولد لامرأة مسيحية .. والتى عادت به قريرة العين !

مع ملاحظة أنه أوقف الحرب فى الوقت الذى كانت الريح معه .. إيثارا للمبادىء على المنافع ..

وأريحييه تلك هى التى حملته على أن يرسل الى خصمه سلة من التفاح .. لما اشتاق إليه ..

ولما مات هدا الخصم .. وحمل شعبه نعشه .. أشار عليه بعض أركان حربه أن ينتهز الفرصة .. ليضرب والظروف مواتية ..

ولكنه رفض الفكرة رفضا نابعا من قوة المؤمن .. التى تمنعه من ضرب العدو فى لحظة من لحظات ضعفه ..

"البداية والنهاية" لابن كثير ح ١٢/٤٣٢-٤٣٣ ط- دار الكتب العلمية – بيروت

وما كان للأريحية الإسلامية أن تفجع أتباعه بالسهام .. فتضيف إلى أحزانهم أحزانا ..

إنه الفتى الأبى الذى يرفض أن يضرب عدوه وهو منحن يلتقط سلاحه .. ولكنه يصبر عليه حتى يستوى قائما .. !!

وبعد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين :

{ قبض من الإفرنج ما كانوا بذلوه عن أنفسهم من الأموال .

وأطلق السلطان خلقا منهم : بنات الملوك بمن معهن من النساء والصبيان والرجال .

ووقعت المسامحة فى كثير منهم .

وشفع فى أناس كثير . فعفاعنهم وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب فى العسكر .

ولم يأخذ منه شيئا مما يقتنى ويدخر }[1]

ومن الغريب : أن الكتاب الغربيين يعرفون هذه الحقائق ..

ثم يروون ما فعل الصليبيون عندما دخلوا بيت المقدس من فظائع تقشعرمنها الجلود .. كان من صورها أن تجاوزت جثث المسلمين الأبرياء أبنية المنازل العالية!

"البداية والنهاية ج ١٢/٣٢٤"

ومع ذلك يتبجح هؤلاء الكتاب فيقولون :

إن الاسلام انتشر بالسيف !! .. وهكذا كان للمستشرقين طنين : وإذا لم تستح فقل ما شئت .. واصنع ما شئت !

إن الاسلام لم ينتصر بالسيف ..

ولكنه انتصر على السيف ! كما يقول الشيخ الغزالى

انتصر على السيف الذى سله الأعداء إرادة استئصاله ..

فلما هزم المعتدون .. إذا هم يبكون أو يتباكون على السلام المزعوم ..

ويرد عليهم الشاعر المسلم :

قالوا : غزوت ورسل الله ما بعثوا . . . بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم

جهل . وتضليل وأحلام وسفسطة . . . غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم

والجهل إن تلقه بالحلم ضقت به . . . ذرعا .. وإن تلقه بالجهل ينحسم

لقد كان على هؤلاء الكتاب أن ينصفوا المسلمين من أنفسهم .. حين يذكرون ما يلى .

أ- كان المسلمون يواجهون الوثنية عدونا المشترك .. ومن ثم .. كان عليهم توجيه طاقه الاتهام .. إلى هذا العدو المشترك لا إلى إخوانهم من رفاق السلاح .

ب- وكان عليهم أن يفهموا التاريخ القديم والحديث .. ثم يوازنوا .. موازنة كاشفة عن الاسلام المسماح .. والذى لم ينتشر أبدا بقوة السلاح ..

وإذا كانت الأشياء تتمايز بأضدادها .. فاسمعوا ما شهد به المنصفون من كتاب الغرب :

يقول "هنرى دى كاسترى" :

{ إن المسيحيين أيام الحروب الصليبية . ما دخلوا بلادا إلا وأعملوا السيف فى اليهود والمسلمين }[1]

{ وعندما هزم المسلمون فى بيت المقدس . أو فى أسبانيا . قتلوا تقتيلا . وأبيد منهم الآلاف . وأحرق بعضهم حرقا }[2]

مسلسل الدمار

وما يزال مسلسل الدمار مستمرا :

{ فمن إحصائيات عصبة الأمم :

أن خسائر الأنفس فى الحرب العالمية الأولى كانت بالملايين

بين قتيل وجريح ومشوه .

وقدرت مجلة "أتلانتيك" الأمريكية الصادرة فى سبتمبر/١٩٤٥م :

١ - "شبابنا وقضاياهم" عبد المنعم النمر ص١١٨
٢ - "شريعة القتال فى الإسلام" /١٥٢ عثمان شرقاوى

أن ضحايا الحرب العالمية الثانية بلغت ستين مليونا .

نهاية المطاف

كان من أقوال طاغية "التتار" "جنكيز خان" إننى لا أفتح البلاد . ولكن أتسلمها ..

ويعنى أنه يخرب القلوب أولا .. حتى إذا لم يبق إلا الحطام الهش .. جاءه مستسلما ..

ولكن الفتح الاسلامى كان شيئا غير ذلك تماما :

لقد كان القائد الإسلامى : يحيى القلوب .. ولا يحطمها .. يبعثها من رقادها .. لترى الحق .. وتعتنقه .. فإذا هى وبهذه الصحوة آتية مسلمة .. لا مستسلمة . مسلمة وجهها إلى الله تعالى بقلوب ذاقت طعم الحق . فوضعت وجودها كله .. لهذا الحق . بل إن وجودها لثمن زهيد فى سبيله ..

إنك بالخوف قد تجبر خصمك على احترامك ..

لكنك لن تظفر بحبه ..

وسوف يبدو حقده الكامن ..بعد رحيلك ..

ولكنك بالحب تبقى فى ضميره ..

ولا تسقط من ذاكرته ..

من أجل ذلك . بقيت أمتنا .

وستبقى . صالحة . مصلحة .

لأن البقاء للأصلح .. ودائما

إن الفضائل العامة ومنها التسامح والأخوة .. ليست وقفا على فريق دون فريق ..

ولكل أمة حظها منها .. وإسهاماتها فى التمكين لها ..

وقد جربت الإنسانية وحدة الكفاح من أجل هذه الفضائل فى سيرة أنبيائها :

وفيما حكاه القرآن الكريم دليل ذلك :

قال ابراهيم عليه السلام :

{ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون }

ومن بعده : موسى وعيسي ومحمد عليهم السلام ..

وواجب أممهم اليوم هو :

أن يهبوا جميعا .. لحماية هذه القيم .. فى وقت تبدو حاجتنا إليها أشد ما تكون

ألا وإن البطولة هي : أن تمنع الحرب لا أن تشعلها ..

إن لك هدفا واضحا .. فيجب أن تتخذ إليه أسلوبا على سمته : واضحا نبيلا ..

وإذن فلا تلجأ إلى أسلوب يناقضه وإلا كان الدين هو الثمن المدفوع .. وما أفدح الخساره عندئذ !!

فتعالوا إلى كلمة سواء :

نصقل إدراكنا .. بالحقيقة .

ونزكي معارفنا .. باليقين

لقد جربت الإنسانية الوحدة يوما .. { كان الناس أمة واحدة .. }

ولما تدخلت الأطماع كان الأمر كما قال عز وجل .

{ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا .. }

لقد جربت الإنسانية الوحدة يوما .. فسعدت بها ..

وهي مطالبة اليوم أن تعود إليها .. أن تعود إلى البيت المهجور.

(آخر دعوانا)

اللهم : إنك أعطيتنا الاسلام من غير أن نسألك .. فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك.

هربت إليك بنفسى .. ياملجأ الهاربين :

هربت إليك بأثقال الذنوب أحملهافوق ظهرى ..

لا يشفع لى .. إلا علمى بأنك أكرم من قصد إليه المضطرون .. وأمل فيما لديه الراغبون .

أسألك : ألا تجعل للهوى إلى سبيلا .. ولا للشيطان على دليلا .

اللهم إنا أطعناك فى أحب الأشياء إليك :التوحيد .

ولم نعصك فى أبغض الأشياء إليك : الشرك ..

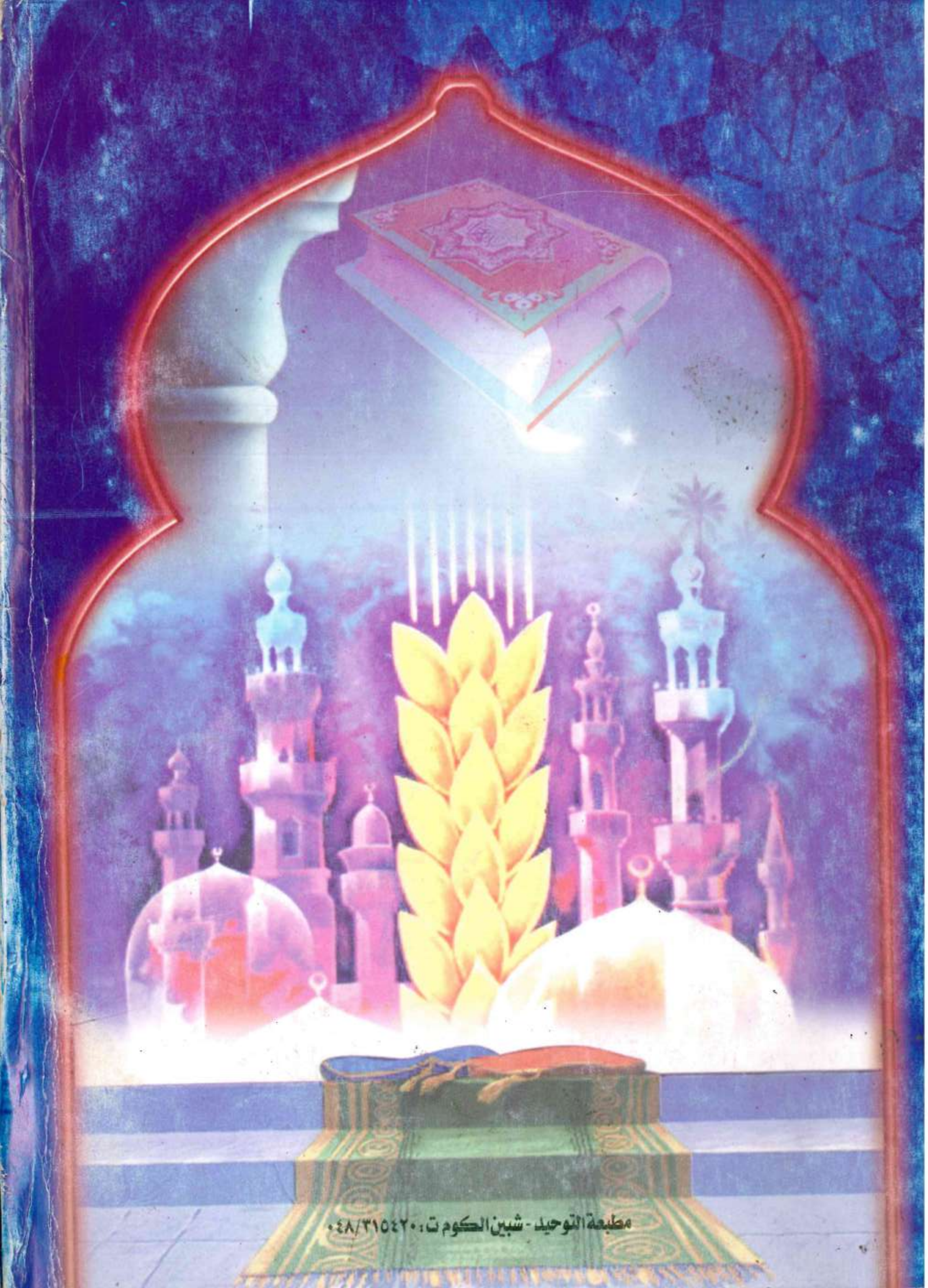
فاغفرلنا ما بين ذلك ..

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾ الحشر : ١٠

فهـــرس الموضوعـــــات

فهـــرس الموضوعــــــات

فهـــرس الموضوعـــــات



مطبعة التوحيد - شبين الكوم ت: ٠٤٨/٣١٥٤٢٠